نحو منهجية
لتدبر القرآن الكريم

إعداد

د. أسامة عبد الرحمن المراكبي

مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مُقَـدّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد.

فقد انتشرت في السنوات الأخيرة دعوات محمودة لإحياء فريضة تدبر القرآن الكريم، ولاقت بحمد الله قبولا طيبًا لدى الخاصة من أهل القرآن، والعامة من المسلمين على سواء. وفي وقت قصير تحركت الهمم، واشتعل الحماس لإعادة التواصل من جديد مع القرآن الكريم. وبذلت جهود في جانبين مهمين من هذا الموضوع:

الأول – تأصيل علم التدبر القرآني.

والثاني – تطبيقات التدبر القرآني.

وفي الجانب التطبيقي يمكن للمتابع رصد منهجين أيضًا[١]:

أولهما – منهج جمع التراث التدبري المتفرق في مصادر التفسير وغيرها من كتب العقائد والتزكية والتراجم..إلخ

ثانيهما – منهج إنتاج نظرات تدبرية جديدة.

ومع تداخل المنهجين في كثير من الأعمال، فقد ظلت الغلبة دائما للمنهج الأول، أعني منهج جمع ونقل التراث التدبري عن السابقين الأولين من العلماء والربانيين. وهذا أمر طبيعي؛ إذ كان الجهد فيه يسيرا والثمرة عظيمة. ففي منهج الجمع لا يحتاج الباحث

١- المنهج في اللغة: الطريق الواضح ، وفي الاصطلاح: الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بوساطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحديد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة، انظر: «مختار الصحاح»- نهج، (ص: ٣٢٠)، و«البحث العلمى أساسياته النظرية وممارسته العملية» لرجاء وحيد (ص: ١٢٩).

إلى شيء أكثر من الصبر على القراءة لجرد الكتب، مع بعض الذكاء في اختيار المصادر الأغنى بمادة تدبرية. فما يكاد يخطو خطوات حتى تنثال[1] عليه الدرر من كل جانب. ولكن يبقى هذا العمل عبارة عن عملية استيراد، تأخذ من إبداع الآخرين وجهودهم منتجا جاهزا، دون أن تحاول بذل الجهد لإبداع منتجها الخاص في التدبر القرآني.

ولما كان الاستيراد دائما أيسر من الإنتاج، وقطف الثمر أحلى من غرس الشجر، فقد قل السائرون على الطريق الثانية، أعني طريق الإنتاج والإبداع بما يحتاجه من تكاليف. وساعد على ذلك أسباب منها غياب المنهجية العلمية لعملية التدبر القرآني، وهو ما ظل يثير هذا السؤال المباشر والمتكرر دائما « كيف نتدبر القرآن ؟ »، إننا نملك تراثا رائعا من التدبر، وهدفنا ليس مجرد نقل التدبر؛ بل إنتاجه، هدفنا ليس قطف الثمرة، بل غرس شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ومن هنا يأتي هذا البحث ليحاول تقديم إجابة محددة لهذا السؤال الكبير «كيف نتدبر القرآن ؟».

ومن العبث في البحث عن كيفية التدبر أن نبدأ من الصفر، كيف ونحن نمتلك تراثا فريدا تركه لنا العلماء والربانيون، عبر خمسة عشر قرنا من الزمان. لذا كان علينا أن ننظر في هذا التراث لنكتشف الأسلوب والطريقة، ونعرف المنهج والوسيلة، بما يمكننا من الإضافة إليه والبناء عليه، في عملية مستمرة من الإنتاج والإبداع في تدبر القرآن الكريم.

١- تقول العرب: انثال عليه القول: إذا تتابع وكثر فلم يدر بأيه يبدأ. انظر: «المحكم» لابن سيده (١٠/ ٢١٢).

أسباب اختيار البحث :

الرغبة في كتابة بحث قرآني ينفع الله به العامة والخاصة من المسلمين، ولا يقتصر نفعه على المتخصصين من أهل العلم.

الرغبة في استخلاص أساليب العلماء في تدبر القرآن، لاستثمارها في مواصلة رحلة التفهم لكتاب الله واستنباط فوائده.

كثرة الانحرافات المنهجية في فهم القرآن وتدبره، وهو ما دفع الباحث إلى محاولة ضبط عملية التدبر القرآني وتنقيتها من الشوائب.

تلبية رغبة بعض طلبة العلم النابهين في وضع أساليب منهجية تيسر لهم تدبر القرآن، وتعصمهم من الخطأ في فهمه.

هدف البحث :

إن الهدف من إبراز هذه الأساليب هو تيسير مهمة التدبر على قارئ القرآن ودارِسِه، ومساعدة العامة والخاصة في عملية «تثوير القرآن»[١] .لاستخراج علومه وحكمته التي لا تنفد، فإن إعجابنا بروائع الوقفات التدبرية التي نجدها لدى السلف والأئمة ينبغي أن يحرك هممنا لاكتشاف الطريقة التي انتهجوها، والأساليب التى استعملوها للخروج بهذه الثمرة الطيبة لننسج على منوالهم ونحذو حذوهم في تفهم كتاب الله تعالى.

١- أخذت هذه التعبير من قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن!»، وفي لفظ عنه أيضًا: «أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين»، والمراد بتثوير القرآن: البحث فيه، والتفتيش عن معانيه، لاستخراج حكمه وأحكامه، يقال: ثوَّرَ الأمرَ تثويرا: بحثه.وثوَّرَ القرآنَ: بحث عن معانيه وعن علمه، قال شَمِر: تثوير القرآن: قراءته، ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه، وقيل: هو أن يُنقّر عنه، ويفكر في معانيه وتفسيره، انظر: «تهذيب اللغة» (ث و ر) (١٥/ ٨٠)، و«إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٣)، و«تاج العروس» - (ث و ر) (١٠/ ٣٤٣).

منهج البحث

يعتمد الباحث في بحثه هذا «المنهج الاستنباطي» الذي يتمثل في دراسة جهود العلماء في تدبر القرآن الكريم بهدف استنباط واستخراج الأساليب المنهجية التي استعملوها، والطرق العلمية التي سلكوا عليها في عملية التدبر.

خطة البحث :

يتضمن هذا البحث مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، كالتالي:

المقدمة : وتتضمن أهمية البحث، وأسباب اختياره، وخطته، ومنهجه.

المبحث الأول: (التدبر) مفهومه، ومبادئه.

المبحث الثاني: أساليب منهجية في تدبر القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أخطاء منهجية في عملية التدبر.

الخاتمة : وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

هذا، وأسأل الله الكريم أن يرزقنا حسن الفهم وحسن العمل، وأن يتقبل منا القليل، ويعفو عن الكثير، وأن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

د. أسامة عبد الرحمن المراكبي
مدرس التفسير بجامعة الأزهر

المبحث الأول

«التدبر» مفهومه، ومبادئه

في هذا المبحث نتناول بإذن الله تعالى الحديث عن التدبر لنبين مفهومه، وأهميته، وحكمه، وشروطه، وأنواعه، وأهم فوائده، ومفاتيحه، ثم نختم بموانعه.

تعريف التدبر:

التدبر في اللغة: هو التفكر، والتفهم، والنظر في عواقب الأمور، وما تؤول إليه[١]، ولا يختلف مفهومه عند المفسرين عن مدلوله في اللغة، وعباراتهم في تفسير معناه متقاربة، وأوضحها عبارة الزمخشري حيث يقول: «تدبُّرُ الأمرِ: تأمُّله، والنظر في أدباره، وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه، وتبصر ما فيه»[٢]، زاد الآلوسي: «سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه».

والتدبر بهذا يعني شيئًا غير تفسير ظواهر الآيات وشرح معناها؛ بل هو نوع من «التأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل من له لِقحةٌ دَرُورٌ[٣] لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها»[٤].

١- انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٨٠)، و«أساس البلاغة» (١/ ٢٧٨)، و«تاج العروس» (١١/ ٢٦٦).

٢- «الكشاف» للزمخشري (١/ ٥٤٠).

٣- اللقحة: الناقة الحلوب، والدَّرُورُ: كثيرة اللبن، انظر: «تهذيب اللغة»- ل ق ح، (٤/ ٣٤)، و«الصحاح» للجوهري- درر (٢/ ٦٥٦).

٤- «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٩٠)، وذكر الشاطبي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢] ثم قال: «ظاهر المعنى شيء، وهم عارفون به؛ لأنهم عرب، والمراد شيء آخر..»، «الموافقات» (٤/ ٢٠٩).

قال ابن عاشور: وأصله أنه من النظر في دُبُر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمل بادئ ذي بدء»[١]. وصيغة التفعل تدل على التكثير، والتوكيد[٢]، والتدرج، قال ابن القيم: وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين»[٣].

ومما سبق نفهم أن التدبر تأمل عقلي في معاني القرآن، فما كان من نحو نقل لغة، وبيان سبب نزول لا يسمى تدبرا، وأنه يختص بما وراء الظواهر القريبة، فما كان شرحا لظاهر اللفظ لا يسمى تدبرا.

الفرق بين التدبر والتفكر والتذكر والتفسير والاستنباط :

هذه كلمات متقاربة المعنى، إلا أن بينها فروقا دقيقة، نشير إليها باختصار:

أما التفكر، فقال أبو هلال العسكري: «التدبر تصرف القلب بالنظر في العواقب، والتفكر تصرف القلب بالنظر في الدلائل[٤]، وأكثر ما يرد التفكر في القرآن في سياق النظر في خلق الله والتأمل في بديع صنعه كما في قوله سبحانه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، والتدبر مختص بالقرآن وآياته»[٥].

وأما التذكر فهو: استحضار الذهن ما كان يعلمه، فنسيه أو غفل عنه، فالتذكر على هذا من آثار التدبر، والتدبر سبب مفض إلى التذكر[٦]، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

١- «التحرير والتنوير» (١٨/ ٨٧).

٢- «اللباب في علل البناء والإعراب» للعكبري (٢/ ٢٧١).

٣- «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ١٨٣).

٤- «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (ص: ٧٥).

٥- «مجالس القرآن» لفريد الأنصاري (١/ ٧٤) بتصرف.

٦- انظر: «التحرير والتنوير» (٢٣/ ٢٥٢).

وأما التفسير، فقال الزركشي: «هو علم يعرف به فَهْمُ كتاب الله المنزَّل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمِه»، وبه يظهر أن التفسير أعم من التدبر، إذ كان التفسير هو بيان المعني بالنقل أو بالعقل وباللغة أو بالخبر، والتدبر مختص بالجهد العقلي كما سبق، والتفسير علم لا يتصدى له غير العلماء الراسخين، والتدبر مأمور به كل أحد، والتفسير من فروض الكفايات يختص به بعض العلماء فيكفي عن بقية الأمة، والتدبر «تكليف شخصي لكل فرد لا ينوب فيه أحد عن أحد، والتفسير عمل علمي تعليمي يقصد به البيان والتبيين، والتدبر عمل قلبي يطلب به التبصر والتذكر والاعتبار»[١].

وأما الاستنباط، فقال العلماء: «هو استخراج ما خفي المرادُ به من اللفظ»[٢]، وخصه الزمخشري بالمعضلات[٣]، ويفهم من ذلك: «أن التدبر أصل الاستنباط، فلا يمكن الاستنباط من النص قبل تدبره والتأمل في معانيه، وأن التدبر يعم العلماء وغيرهم، والاستنباط خاصٌّ بأولي العلم»[٤]، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء:٨٣]، وأن الاستنباط يختص بالخفيات والمعضلات، قال الجصاص: الدليل الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا، لا تنازع فيه، ولا يحتاج إلى استنباط»[٥].

١- انظر: «مجالس القرآن» لفريد الأنصاري (١/ ٧٢) بتصرف.

٢- «التفسير البسيط» للواحدي (٦/ ٦٤٣)، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٤/ ١٥٨).

٣- «الكشاف» للزمخشري (١/ ٥٤١).

٤- انظر: «مفهوم التدبر تحرير وتأصيل»، أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم، الورقة الثانية: «تحرير معنى التدبر عند المفسرين» لفهد الوهبي (١٠١).

٥- «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ١٨٤) باختصار.

أهمية التدبر:

تتجلى أهمية التدبر في أن الله تعالى جعله الطريق لإدراك هداية القرآن، وتحصيل بركته العلمية والعملية «فقد نزل القرآن الكريم ليكون آية على صحة نبوة سيّدنا محمد ﷺ، وليكون ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وهذا يقتضِي أن يكون حقه الإيمان به، وحسن ترتيله، وحسن تدبره، والعمل بما فيه وتعليمه، والدعوة إليه بلسان الحال ولسان المقال، قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فهذه (اللام) في ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ لام الغاية والحكمة، فمن لم يأخذ حظَّه من مدخولهما لن يأخذ حظه من بركته، والبركة من الكلمات الحبيبة التي تنشرح لها قلوب العباد، فإنَّها مرتبطة بالنماء والزيادة، والثبات والدوام، فقرر القرآن بهذه الكلمة نَعْتينِ للكتاب: تجدد عطائه ودوام نفعه. ومن ثَمَّ حثّ على تدبره لاستخراج ما فيه من خير متجدد لا يزول ولا يحول ولا يغيض، فهو لا يَصْلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وعصرٍ ومصرٍ فحسب؛ بل هو يُصلِح كلّ ذلك ويقومه ويقيمه على سواء الصراط»(١).

وقد أخبر النبي ﷺ أن أهل مدارسة القرآن هم أهل رحمة الله، عليهم تتنزل السكينة، وبهم تحف الملائكة، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»(٢).

١- «العزفُ على أنوار الذِّكر»، و«معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة»، د. محمود توفيق محمد سعد، (٩) باختصار.

٢- «صحيح مسلم»، [كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩)، (٤/ ٢٠٧٤)].

حكم التدبر:

صرحت عبارات كثير من العلماء بوجوب تدبر القرآن وتفهمه والتشديد على من ترك ذلك وأعرض عنه ، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩]، قال القرطبي: «وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن»(١).

وكذا قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]: «دلت هذه الآية على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه»، وكذا قال البقاعي(٢).

وقال في «التذكار»: «قال العلماء: يجب على القارئ إحضار قلبه، والتفكير عند قراءته، لأنه يقرأ خطاب الله الذي خاطب به عباده، فمن قرأ ولم يتفكر فيه وهو من أهل أن يدركه.. كان كَمَن لم يقرأه»(٣).

وعدَّ ابن كثير ترك تدبر القرآن داخلًا في هجره الذي ورد ذمه في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣٠، ٣١]، قال ابن كثير: «وترك تدبره وتفهمه من هِجرانه»(٤).

وقال الغزالي: «ومن لم يكن له فهمٌ مّا في القرآن -ولو في أدنى الدرجات- دخل في قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ [محمد: ١٦]»(٥).

١- «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٥/ ١٩٢).
٢- المرجع السابق (٥/ ٢٩٠)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٥/ ٣٤٠).
٣- «التذكار في أفضل الأذكار» (١٩٥ - ١٩٦).
٤- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٦/ ١٠٨).
٥- «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٣).

وتواترت أقوال الصحابة والتابعين والأئمة وأحوالهم دالة على أهمية التدبر ووجوب العناية به، وذم القراءة لا فهم فيها ولا تدبر؛ فعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها»[١].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لقد عشنا بُرْهة[٢] من الدهر وأحدُنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، كما تعلمون أنتم القرآن، ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره، ولاَ زاجره، ولاَ ما ينبغي أن يقف عنده، وينثره نثر الدَّقَل»[٣].

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: »إن من كان قبلكم رآه -أي القرآن- رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار»[٤].

واشتد الحسن على أقوام تباهوا بالحفظ وتركوا التدبر والعمل، فقال: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبُّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده! حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله! ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل! حتى إن أحدهم ليقول: «إني لأقرأ السورة في نَفَسٍ! والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعة! متى كانت

---

١ - «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٤/ ٣٤٤)

٢ - البَرهة بالفتح ويُضم: الزمان الطويل، أو أعمُّ. «تاج العروس» - بره، (٣٦/ ٣٤٠).

٣ -« فضائل القرآن» للمستغفري (١/ ٢٧٥) والدَّقَل: نوع من التمر رديء، إذا انتثر تفرق سريعًا ولم يلصق بعضه ببعض. فالمقصود النهي عن قراءة سريعة لا تدبر فيها، غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٣٤٤).

٤ -« إحياء علوم الدين» (١/ ٢٧٥).

القراء مثل هذا؟! لا كثَّر الله في الناس أمثالهم!!»[١]، وقال: نزل القرآن ليُتَدَبَّر ويُعملَ به؛ فاتخذوا تلاوته عملًا»[٢].

وقال الشنقيطي: «كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم فهو معرض عنها مستحق للإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠]»[٣].

الحاجة إلى التدبر:

قد يسأل سائل: لماذا يحتاج القرآن إلى تدبر وتأمل؟ أليس قد أنزله الله بيّنا واضحا مفصلا؟، والجواب: بلى، وهو مع ذلك محتاج إلى تأمل طويل، وتفكر وتدبر لأسباب منها:

أولًا- لأن الله تعالى أنزله بعلمه، وعِلمُهُ سبحانه يفوت علوم الخلق بمراحل هائلة، فلا جرم احتاج إلى تدبر وتفسير يقربه من أفهام الخلق[٤].

ثانيًا- لأن كلامه سبحانه موجز غاية الإيجاز، مختصر غاية الاختصار، جامع لمعان كثيرة في ألفاظ قليلة، ومثله يحتاج إلى تفكر وتأمل لاستخراج كنوزه، وبسط معانيه. يُروى أن فضيل بن عياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم: «لو

١-« مختصر قيام الليل» للمروزي (ص: ١٧٦).

٢- «تفسير السمعاني» (٤/ ١١٩).

٣- «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٧/ ٢٥٧). لكن عبارة السيوطي تصرح بكونه سنة من السنن وذلك حيث يقول في «الإتقان» (١/ ٣٦٨): وتسن القراءة بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم.

٤- انظر: «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١/ ١٤).

طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون! فقالوا: تعلمنا القرآن! فقال: إن في تعلُّمكم القرآن شغلًا لأعماركم وأعمار أولادكم! لو طلبتموه لاستغنيتم به عن كلام فضيل وابن عيينة»، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧- ٥٨][١].

ثالثًا- لأنه كتاب معجز، فاق بأسلوبه ومضمونه قدرات الإنس والجن، «وإذا كان بهذه المنزلة من الإعجاز في نظمه ومعانيه، احتاجت ألفاظه في استخراج معانيها إلى زيادة التأمل لها وفضل الرويَّة فيها، ولا يقتصر فيها على أوائل البديهة، ولا يقنع فيها بمبادئ الفكرة، ليصل بمبالغة الاجتهاد وإمعان النظر إلى جميع ما تضمنته ألفاظه من المعاني واحتملته من التأويل»[٢].

رابعًا- لأننا أصبحنا غرباء عن القرآن حين استعجمت ألسنتنا، وضعفت لغتنا، وصرنا نحتاج إلى الدراسة والتعلم سنين عددا؛ لندرك من معاني القرآن ما كان يدركه الأولون بأول النظر، أو بقليل التدبر. جاء عن بعضهم، وقال له قائل: جئت أسألك عن حرف من الغريب، فَقَالَ: هُوَ كلام القوم، إنما الغَريب أنتَ وأمثالُك من الدُّخَلاء فيه![٣].

١- «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١/ ٢٢) بتصرف يسير.

٢- «النكت والعيون» للماوردي (١/ ٣٣).

٣- «غريب الحديث» لأبي سليمان الخطابي (١/ ٧).

المأمورون بالتدبر:

يظهر لمن يتتبع آيات التدبر في القرآن الكريم أنها نزلت في طوائف مختلفة من الناس، فإن آية سورة «النساء»، أعني قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] قد نزلت في قوم من المنافقين كانوا إذا حضروا النبي ﷺ أظهروا الإيمان والطاعة، وإذا برزوا من عنده خالفوا، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء:٨١]، ثم قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، قال ابن جرير: «أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم، يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجّة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لاتّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض»[1]، فهذا أمر للمنافقين بتدبر القرآن الكريم.

وكذا آية سورة القتال نزلت في شأن المنافقين ﴿ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [محمد:٢٠]، فإذا أمروا بالجهاد نكصوا على أعقابهم ولم يَصدُقوا الله في جهاد أعدائه فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، ووصمهم الله تعالى بالرِّدة عن دينهم فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد:٢٥]، يقول ابن جرير: «أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون

١- «جامع البيان» للطبري (٨/ ٥٦٧).

مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ، ويتفكَّرون في حُججه التي بيَّنها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾»، يقول: «أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعِبَر»(١)، فهذه أيضًا في المنافقين يأمرهم الله أن يتدبروا القرآن ويتفهموا آياته.

ونزلت آية سورة «ص»، أعني قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [ص:٦٨] في قوم من المشركين المستكبرين، الذين قلوبهم في غمرة من القرآن، ولهم أعمال سوءٍ هم لها عاملون: كذبوا بآيات الله، وسخروا برسوله، واستكبروا عن طاعته، ورموه بالعظائم؛ فأنزل الله فيهم: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [ص:٦٨-٧٠]، فهذا أمر بالتدبر موجه إلى المشركين المكذبين.

وقد يأتي الأمر بالتدبر لكل من أنزل إليهم القرآن من إنس وجن، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، قال ابن جرير: «قد أمر الله جل ثناؤه عباده بتدبُّره وحثهم على الاعتبار بأمثاله»(٢).

فمن استقرأ هذه الآيات ونحوها، وتتبع سياقها، وعرف أسباب نزولها، ظهر له جليا أن الخطاب بتدبر القرآن قد توجه إلى جميع الخلق من إنس وجن، ومؤمن وكافر، وعالم وجاهل، وأن كل مخاطب بألفاظ القرآن مخاطب بتدبر معانيه وتفهم أحكامه.

فليس الأمر بالتدبر خاصًا بالعلماء دون العامة، ولا بالمسلمين دون الكافرين؛ بل هو عام شامل لكل من أراد هداية الله من مؤمن وكافر، يقول الشنقيطي: «اعلم أن قول

١- المرجع السابق (٢٢/ ١٧٩).

٢- المرجع السابق (١/ ٨٣).

بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلًا.

بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين، على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما، أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعا. وأما ما علمه منهما علما صحيحا ناشئا عن تعلم صحيح. فله أن يعمل به. ولو آية واحدة أو حديثا واحدا. ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من لم يتدبر كتاب الله - عام لجميع الناس.

ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، وليس أحد منهم مستكملا لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول؛ بل ليس عندهم شيء منها أصلا. فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى»[1]، وعَدَّ الشيخ تركَ التدبر داخلا في هجر القرآن.

شروط التدبر :

وهل يشترط في المتدبر شروط المفسر، فيختص التدبر بالعلماء دون العامة؟ ذهب إليه بعضهم[2]، وفيه نظر من وجوه منها :

(١) أن أكثر آيات التدبر إنما وردت في القرآن خطابا للكافرين والمنافقين، فلو لم يكونوا أهلا للتدبر لما توجه الأمر به إليهم ، ولما ذمهم الله بتركه، ولما قامت الحجة عليهم بالقرآن.

١- «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٧/ ٢٥٨).

٢- انظر: «أنوار التنزيل» للبيضاوي (ص: ٤٥).

(٢) أنه قد ورد الأمر الإلهي بالتدبر عاما لجميع الخلق، غير مخصوص ببعض دون بعض، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩]، فمن ادعى الخصوص لزمه الدليل.

فلعل الأولى بالصواب أن يُقال: إنه لا يلزم فيمن يتصدى لتدبر القرآن شروط المفسر؛ فإن التدبر نوع من التأمل يأتي بعد الفهم، وقد يعتمد المتدبر تفسير أهل العلم بقراءة أو سماع أو سؤال، ثم يجتهد في التدبر.

وقد يُقال بتعبير آخر: إن لكل أحد التدبر فيما اتضح معناه واستغنى عن التفسير دون ما أشكل، وإن الأمر بالتدبر أمر بتحصيل المعنى وفهمه، «لأنه مُحَالٌ أن يُقال لمن لا يفهم ما يقال ولا يعقل تأويلَه: اعتبر بما لا فَهْمَ لك به ولا معرفةَ، إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به»[١].

وقد يقال: إن التدبر نوع من الفهم الخاص، لا يؤاخذ به العامي ما لم يتجه إلى نشره وإذاعته، فعند ذلك لابد من عرضه على أهل العلم لتقويمه، وتمييز صوابه من خطئه.

وعلى كل حال لا أرى أحدا يملك الحق في أن يقول لإنسان مسلم أو كافر عالم أو جاهل: لا تحاول أن تفهم كلام ربك ورسالته إليك، ولا تتجرأ على التفكر في معانيها والتأمل في دلالتها!

بل هو مأمور بكل ذلك أمرا جازما، غير معذور في ترك شيء منه، خاصة وأن أكثر القرآن واضح المعنى، قريب المأخذ، واقرأ من أوله واسترسل صفحات وصفحات هل ترى كلمة غريبة أو تركيبا معضلا أو آية مشكلة، إلا في النادر القليل! ألا ترى أكثره سهل الألفاظ واضح المعاني داني القطاف.

١- «جامع البيان» للطبري (١/ ٨٣).

أخشى أنه قد رسخ في عقول كثير من المسلمين أن هذا القرآن صعب مستصعب، وعر مستوعر! وأن بين عامة الناس وبين فهم معانيه أوديةً مهلكة، وأهوالًا مردية! فأنتجت هذه الظنون الفاسدة إعراضا عن معاني القرآن جملة، وعزوفا عن محاولة التفكر والتدبر في أحكامه وحكمه جميعا ، حتى رضي أكثرهم من الغنيمة بالإياب، واكتفى عن هديه وأنواره بالتبرك بقراءته وتحصيل الثواب! إذ كان فهمه مختصا بالعلماء وأين نحن من العلماء! بل أين العلماء؟!

هذا والقرآن يُبدئ ويُعيد بقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢،٤٠].

نعم قد ينصح المتدبر بما يسدد فهمه، ويؤمر بسؤال أهل العلم فيما أشكل، والتوقف فيما التبس، أما أن يمنع من التفهم جملة، وتغلق دونه أبواب التدبر ونوافذه كلها فلا .

وإنما تَرِدُ شروط المفسر فيمن يتصدى لتعليم معاني القرآن وتفهيمها لغيره؛ فإن هذه مهمة مخصوصة بأهل العلم، مشروطة بتحصيل أدوات ومعارف معينة.

إنه الفرق إذن بين التعلم والتعليم، وبين التفهم والتفهيم ، فالأول حق لكل إنسان بخلاف الثاني فإنه حكر موقوف على المتخصصين.

وكذا الأمر في سائر العلوم والمعارف ، فإنه لا يمنع إنسان مهما كان مستواه العلمي أو تخصصه من قراءة كتاب في الطب ومحاولة تفهمه بما تيسر له من فهم ، ولكنه سيمنع حتما من التصدي لتدريس علم الطب لطلابه، ومن وصف العلاج للمرضى، ومن إجراء العمليات الجراحية للمصابين، فإن هذه أمور تتطلب علما وخبرة لا يحصلها المرء إلا بدراسة علوم كثيرة وبممارسة عملية طويلة.

أنواع التدبر:

قال ابن عاشور: معنى ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: يتأمّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما- أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبّر تفاصيله، وثانيهما: أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنّه من عند الله، وأنَّ الذي جاء به صادق»[١].

فوائد التدبر:

ولتدبر القرآن فوائد لا تحصى نذكر منها ما يسمح به المقام:

١- اليقين بصدق القرآن وأنه وحي الله تعالى:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، قال قتادة: «يَقُول إن قول الله لا يختلف، وهو حق ليس فيه باطل، وقول الناس يختلف»[٢]، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فمن ذا الذي يسلم من خطأ أو سهو وإن بلغ من العلم ما بلغ، هذا الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رجل من أذكياء العالم يقول عن كتبه: «لقد ألفت هذه الكتب ولم آل فيها، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة، فقد رجعت عنه»[٣]، ولا شك أن الأمر بالتدبر في القرآن دليل على صحة كلام الله وسلامته مما يشينه، فإن المبطل لا يطالب الناس بتأمل كلامه وتدبره، وإلا لافتضح أمره وظهر عواره[٤].

١- «التحرير والتنوير» (٥/ ١٣٧).

٢- «تفسير القرآن» لابن المنذر (٢/ ٨٠٤).

٣- «تفسير الإمام الشافعي» جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (٢/ ٦٣٠).

٤- ودليل على أن القرآن معلوم المعنى، «خلاف ما يقوله من يذهب إلى أنه لا يعلم معناه إلا النبي والإمام المعصوم، لأنه لو كان كذلك لما تهيأ للمنافقين معرفة ذلك بالتدبر، ولما جاز أن يأمرهم الله تعالى به، وأن يجعل القرآن حجة في صحة نبوته، ولا أن يجعل عجزهم عن مثله حجة عليهم « التفسير الكبير » للفخر الرازي (١٠/ ١٥٢).

٢- تحصيل هداية القرآن :

قال ابن القيم: «ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده من تدبر القرآن، وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه وقواطيع الطريق وآفاته، وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة.

فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما يختلف فيه العالم، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، وتعطيه قوة في قلبه وحياة واسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا فيصير في شأن والناس في شأن آخر..»[١].

ومن فاز بهداية القرآن فاز بخير الدنيا والآخرة وعصم من الضلال وسلم من الشقاء، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[٢].

١- «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٤٥٠) باختصار.

٢- «جامع البيان» (١٨/ ٣٨٩).

٣- تحصيل شفاء القرآن :

قال الحارث المحاسبي: «ضمن من لا (يُخفَرُ)[١] ضمانُه، ووَعَدَ من لا يُخْلَف وعدُه، جلَّ ربُّنا أن ما أنزل من كلامه شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين فما أحق من أغفلَ فهمَ كتابه أن يستحي من ربه عَزَّوَجَلَّ، ويأسف على ما مضى من عمره ومرضِ قلبه، وهو لا يزداد إلا سقما ومرضا، وذلك لقلة مبالاته بدائه، وتَرْكِ طلبِ شفائه بما قال مولاه، وتدبُّرِ ما تكلم به خالقه»[٢]، وقال الشيخ إبراهيم الخواص: «دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن[٣]، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»، وقال النووي: «فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة والدلائل عليه أكثر من أن تحصر وأشهر وأظهر من أن تذكر فهو المقصود المطلوب وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب»[٤].

٤- تعظيم الأجر والثواب :

فقد عرفنا من أصل الدين إن العامل بكتاب الله المتدبر له أفضل من الحافظ والتالي له إذا لم ينل شأوه في العمل والتدبر، وقد كان في الصحابة من هو أحفظ لكتاب الله من أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأكثر تلاوة منه وكان هو أفضلهم على الإطلاق لسبقه عليهم في العلم بالله وبكتابه وتدبره وعمله به[٥].

١- في الأصل: «يخفى» ولا معنى له، فلعل الصواب ما أثبته، فإنه يقال: أخفر الذمةَ، إذا لم يف بها وانتهكها. انظر: «تاج العروس»- خفر (١١/ ٢٠٦).

٢- «العقل وفهم القرآن» للمحاسبي (ص: ٣١٥).

٣- إن أراد الصيام فنعم، وإن أراد الجوع فلا، إذ لا فضيلة له في الشرع؛ بل كان النبي ﷺ يستعيذ بالله منه.

٤- «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص: ٨٢، ٨٤).

٥- «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٧/ ٢٠٩).

قال رجل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث، قال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إليَّ أن أقرأ كما تقول»[١].

وسأل رجل مجاهدا: رجل قرأ البقرة وآل عمران، وآخر قرأ البقرة، وركوعهما وسجودهما واحد، أيهما أفضل؟ قال: الذي قرأ البقرة، وقرأ مجاهد: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦]، قال: على تؤدة»[٢].

قال ابن تيمية: «والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه، والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين»[٣].

٥- دفع أوهام التعارض عن كلام الله تعالى:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، قال الشاطبي: «إذا حصل التدبر لم يوجد في القرآن اختلاف ألبتة»[٤].

مفاتيح التدبر:

نقصد بمفاتيح التدبر تلك الأمور التي تفتح بابه وتعين عليه وتيسر الطريق إليه، فمنها ما يلي:

١- تعظيم القرآن.. وطريق ذلك أن يستحضر القارئ في قلبه عظمة المتكلم سبحانه «ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر. ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله؛ فإذا حضر بباله العرش والكرسي، والسموات والأرض

١- «فضائل القرآن لأبي عبيد» (ص: ١٥٨).

٢- «جامع البيان »للطبري (١٧/ ٥٧٥).

٣- «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٥٥).

٤- «الموافقات في أصول الشريعة» (٤/ ٢٠٩).

وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، وهذا غاية العظمة والتعالي فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام، والمعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه»[(١)].

وقد مدح الله قومًا فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر:٢٣]، قال الحارث المحاسبي: «كلام العالم عندنا أحلى وألذ وأرفع وأجل من كلام الجاهل، وكلام الشريف من كلام الوضيع، وكلام من أحسن إلينا لا كمن لا إحسان له إلينا، وكلام الناصح المتحنن أحسن من كلام من لا ينصحنا ولا يتحنن علينا، حتى إن كلام الوالدة نجد له من اللذة والحلاوة ما لا نجد من كلام غيرها لمعرفتنا برحمتها ونصحها وتحننها علينا؛ فلا أحد أعظم عندنا ولا أعلم ولا أقرب لنا ولا أرحم من الله تعالى؛ بل لم يرحمنا راحم، ولم ينصحنا ناصح، ولم يتحنن علينا متحنن، إلا بما استودع لنا في قلبه وسخره لنا بالرحمة والنصح، فإذا عظم في صدرك تعظيم المتكلم سبحانه لم يكن عندك شيء أرفع ولا أشرف ولا أنفع ولا ألذ ولا أحلى من استماع كلام الله عَزَّوَجَلَّ وفهم معاني قوله تعظيمًا وحبًا له وإجلالًا»[(٢)].

٢- الاستماع والإنصات.. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، قال ابن جرير: «يقول: أصغوا له سمعكم، لتتفهموا

١- «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨١).

٢- «العقل وفهم القرآن» (ص: ٣٠٤) بتصرف واختصار.

آياته، وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه لتعقلوه وتتدبروه، ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيِهِ»[١].

يقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة:١٠٤]، فأصغ لها سمعك، فإنَّه خير تؤمر به، أو شرّ تصرف عنه»[٢].

وقال الليث: يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ {الأعراف:٢٠٤} و«لعل» من الله واجبة»[٣].

وقال المحاسبي: «ولقد ذم مولانا عَزَّوَجَلَّ المتشاغلين عند استماعهم بالمحادثة فقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء:٤٧] فاحرص أن لا يكون فيك خلق ذم الله عَزَّوَجَلَّ به كافرًا، وإن كنت مؤمنًا فإن من كمال الإيمان مخالفة أهل الكفر بالقول والفعل فيما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه»[٤].

٣- **صِدق النية..** فإن الله إذا علم من عبده نية صادقة في تفهم كلامه وقصدا صالحا إلى معرفة الحق والعمل به وفقه وأعانه وسدد عقله وهدى قلبه وفتح له باب الفهم ويسر له طريق العمل، وإذا رأى الله عَزَّوَجَلَّ عبده إنما يطلب من معاني القرآن ما يتزين به في المجالس ويتصنع به عند العباد، ويتباهى به على المنابر ختم على قلبه فلم يدرك

١- «جامع البيان» للطبري (١٣/ ٣٤٥) باختصار يسير.
٢- «النكت والعيون» (٥/ ٥١٠).
٣- «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩).
٤- «العقل وفهم القرآن» للمحاسبي (ص: ٣٢١).

هداية القرآن ولم ينتفع بأنواره، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٣][١].

٤- حضور القلب.. «سأل بعضهم أحد العلماء: بم أستعين على فهم معاني ما أتلو أو يتلى عليَّ؟ فقال: بإحضار عقلك فبذلك تفهم وتذكر، ألم تسمعه عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧]، قال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾: لا يحدث نفسه بغير ما يسمع، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ قال: شاهد القلب. قال: فكيف أحضر عقلي؟ قال: بأن تجمع فهمك حتى لا يكون فهمك متفرقا في شيء غير طلب الفهم لكلام مولاك. وتمنع جوارحك أن تشتغل بما لا يشتغل به عقلك و تستعمل كل جارحة بما يعينك على الفهم كنظرك في مصحف واستماعك إلى تلاوتك أو تلاوة غيرك»[٢].

٥- التواضع وترك الكبر والعناد.. فإن المستكبر عن قبول الحق لا تنفذ هدايات القرآن إلى قلبه، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

٦- فهم المعنى الأصلى ولو إجمالًا.. فإن التدبر والتفهم لا يعقل إلا بعد العلم بالمعنى الأصلي وفهم المراد من الكلام ولو بصورة إجمالية، يقول ابن جرير: «وفي حثِّ الله عَزَّوَجَلَّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات ما يدل على أنَّ عليهم معرفة تأويله، فما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: «اعتبرْ بها» إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا؛ وإلا

١- انظر: المرجع السابق (ص:٣٢٠).

٢- «العقل وفهم القرآن» للمحاسبي (ص: ٣١٩).

بمعنى الأمر -لمن كان بذلك منهُ جاهلا- أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكمَه وصُنوف عِبَرِه»(١).

٧- **اعتقاد التخصيص..** ويعنون به أن يستشعر القاريء أنه المخصوص بالآية عامة كانت الآية أو خاصة، فينبغي لمن يريد التدبر ألا يغادر الآية قبل أن يعرف حظه منها، يقول أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن؛ فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهيُّ والمأمور، وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود ليعتبر به، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي ﷺ وأمته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]، فليقدر العبد أن الله يثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى».

وكيف لا يقدر هذا؟ والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة؛ بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين؛ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب، فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٣]، ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

١- «جامع البيان» للطبري (١/ ٨٣).

وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارىء الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس؟! فليقدر أنه المقصود، قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله!»[١].

وقال مُطرِّف بن عبد الله: «إني لأستلقي من الليل على فراشي فأتدبر القرآن كله فأعرض نفسي على أعمال أهل الجنة فأرى أعمالهم شديدة ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩] فلا أرى صفتي منهم، فأعرض نفسي على أعمال أهل النار، قالوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٧] فأرى القوم مكذبين فلا أراني فيهم، فأمر بهذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم»[٢].

وعن نافع قال: «كان ابن عمر يشتري السُّكَّرَ فيتصدق به فنقول له: لو اشتريت لهم بثمنه طعاما كان أنفع لهم من هذا؟ فيقول: إني أعرف الذي تقولون؛ ولكني سمعت الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وابن عمر يحب السُّكَّر!»[٣].

١- «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٥).

٢- «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥٨/ ٢٩٨).

٣- «كتاب تفسير القرآن» لابن المنذر (١/ ٢٨٨).

ويقول المفكر محمد إقبال: «قد كنت تعمدت أن اقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم، وكان أبي يراني فيسألني، ماذا أصنع؟ فأجيبه: أقرأ القرآن. وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات، يسألني سؤاله فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: مالك يا أبي تسألني نفس السؤال، وأجيبك جوابًا واحدًا، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد؟! فقال: إنما أردت أن أقول لك يا ولدي: اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك! ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن، وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت»[1].

موانع التدبر:

وقد يحول بين العبد وبين التدبر والتفهم أمور، ذكر بعضها حجة الإسلام الغزالي فقال: «إن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن..، وحجب الفهم أربعة:

أولها- أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف، يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف، فأنى تنكشف له المعاني؟

ثانيها- أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد، وجمد عليه، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع، فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفا على مسموعه، فإن لمع برق على بعد، وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه، حمل عليه شيطان التقليد حملة، وقال: كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك؟! فيرى أن ذلك غرور من الشيطان،

١- «روائع إقبال» لأبي الحسن الندوي (ص ٤٢).

فيتباعد منه ويحترز عن مثله، ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم حجاب، وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد، أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم، فأما العلم الحقيقي فكيف يكون حجابا وهو منتهى المطلب؟!

ثالثها- أن يكون مصرا على ذنب، أو متصفا بكبر، أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع؛ فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حجب الأكثرون وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كما كانت معاني الكلام أشد احتجابا، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة، والشهواتُ مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة، وقد شرط الله عَزَّوَجَلَّ الإنابة في الفهم والتذكير، فقال تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣].

رابعها- أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار[١]، فهذا أيضًا من الحجب العظيمة»[٢]، قال: فإن الوعيد فيمن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه، فيستجرّ شهادة

١- أخرجه أحمد، مسند عبد الله بن العباس، (٣/ ٤٩٦)، برقم (٢٠٦٩)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف عبد الأعلى الثعلبي، ومع ذلك فقد حسنه الترمذي وصححه ابن القطان.

٢- «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٥) باختصار.

القرآن إليه، ويحمله عليه، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية، لغوية أو نقلية، ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسَّر القرآنُ بالاستنباط والفكر؛ فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة، ونعلم أن جميعها غير مسموع من النبي ﷺ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر؛ ولهذا قال ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللّهُمَّ فقّهْهُ في الدين وعلّمه التأويل**»[1].

***

١ – «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٧)، والحديث أخرجه البخاري، [كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، (١٤٣)، (١ / ٤١)] دون قوله: «وعلمه التأويل» وهو في مسند أحمد بن حنبل (١/ ٢٦٦) تام.

المبحث الثاني

أساليب منهجية في تدبر القرآن الكريم

يقصد هذا المبحث إلى محاولة الإجابة على هذا السؤال المهم والملح دائمًا «كيف نتدبر القرآن؟»، وله جوابان: إجمالي وتفصيلي، أما الأول- فنذكر فيه كيفية التدبر إجمالا، وأما الثاني- فنفصل فيها عددا من الأساليب المنهجية في تدبر القرآن تفصيلًا.

فنقول وبالله التوفيق :

«لما كان التدبر هو التأمل والتفكر في كلام الله تعالى كان طريق من يطلبه أن يتفهم معاني الآيات، ولا يقف عند ظواهرها القريبة، وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم أو دعاء تضرع وطلب»[١].

يقول أبو حامد الغزالي: «وينبغي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ؛ إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عَزَّوَجَلَّ، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وذكر أحوال المكذبين لهم، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره،وذكر الجنة والنار.

أما صفات الله عَزَّوَجَلَّ: فليتأمل معانيها، لتنكشف له أسرارها، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين، فليكن حريصا على طلب ذلك الفهم. فإن أعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته؛ إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورا لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها.

١- «الإتقان في علوم القرآن» (١/ ٣٦٩).

وأما أفعاله تعالى: فليفهم التالي منها صفات الله عَزَّوَجَلَّ وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته ،فمن عرف الحق رآه في كل شيء إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٣]، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨]، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨]، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ [الواقعة: ٧١]، فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني ؛ بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم، والعروق والعصب، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة، من الرأس، واليد والرجل،والكبد والقلب، وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة، من السمع والبصر والعقل، وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة، والكبر والجهل،والتكذيب والمجادلة، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧]، فليتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب، وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب، فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع.

وأما أحوال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فإذا سمع منها كيف كُذِّبوا وضُرِبوا وقُتل بعضُهم! فليفهم منه صفة الاستغناء لله عَزَّوَجَلَّ عن الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئا. وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته لنصرة الحق.

وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل، فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية.

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه ؛ لأن ذلك لا نهاية له، وإنما لكل عبد بقدر رزقه ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]، فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه»[١].

هذا ما يتعلق بكيفية التدبر إجمالا، فأما التفصيل فيظهر في هذه الأساليب المنهجية التي نذكرها -بإذن الله تعالى- مقرونة بنماذج تطبيقية توضح المراد بها، على أنه لا يحتاج إلى تنبيه أن نقول: «إن أساليب التدبر ليست محصورة فيما نذكر، وإن بإمكان الباحث والقارئ استنباط أساليب جديدة أو اكتشافها لدى السابقين من العلماء والربانيين».

أولًا- الاعتبار:

ولفظ الاعتبار مأخوذ من العبور وهو المجاوزة من شيء إلى شيء، ولهذا سميت العَبرة عَبرة؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخد. وعلى هذا فقد قيل: الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليُعرف بالنظر فيها شيءٌ آخر من جنسها»[٢]، وقيل: «هو النظر في الشيء ليُعرف به جنسُه ومثلُه»[٣].

وقد أمر الله بالاعتبار في قوله: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢] ودلنا على مواطن العبرة في آياتٍ، منها قوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١] يعني الرسل والأنبياء، قال الغزالي: «وأكثر أسرار القرآن مخبأة في طي القصص والأخبار فكن حريصًا على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه»[٤].

١- «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٣) باختصار.

٢- «التفسير الكبير» للرازي (٢٩/ ٥٠٤).

٣- تفسير السمعاني (٥/ ٣٩٧).

٤- «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٤٣).

وقيل: «إذا أخبر الله سبحانه بغضبه على قوم وعقابه إياهم، فظاهر ذلك إخبار عنهم، وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الأمة»[١].

فمن الاعتبار أن يَعْبُرَ بالآية عمن نزلت فيه من الكفار والمنافقين مثلا إلى غيرهم، فإن من فعل فعلهم لا يأمن أن يعاقب عقابهم، وقد قال بعض المفسرين: «كل آية في الكفار تجر ذيلها على عُصاة المؤمنين»[٢].

قال القرطبي: «فإن قيل: فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة؟» قيل له: «لا يستبعد أن يُنتزع مما أنزل الله في المشركين أحكامٌ تليق بالمسلمين»، وقد قال عمر: «إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء، وتوضع صحفة وترفع أخرى، ولكنا سمعنا قول الله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وهذه الآية نص في الكفار، ومع ذلك ففهم منها عمر الزجرَ عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة»[٣].

وروي عن جابر قال: «رأى عمر لحما معلقا في يدي فقال: ما هذا يا جابر؟ فقلت: اشتهيت لحما فاشتريته، فقال: أو كلما اشتهيتَ اشتريتَ يا جابر؟ أما تخاف هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]»[٤].

ومن الاعتبار أن يتجاوز المرء خصوص الآية ليعممها على ما يشابهها من أحوال وأشخاص.

١- «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لأبي الحسن المباركفوري (٧/ ٢٠٧) بتصرف يسير.

٢- «البحر المديد» (٣/ ٢٨٣).

٣- «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٩٢).

٤- أخرجه مالك في «الموطأ»، [كتاب: صفة النبي ﷺ، باب: ما جاء في أكل اللحم، (٥/ ١٣٧٠)، رقم: (٣٤٥١)].

وقد يكون هذا التعميم في الأشخاص وقد يكون في الأحوال. أما الأشخاص فما نزل في شخص يعم كل شخص مثله يكون إلى يوم القيامة.

يقول الماتريدي: «الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١] في حقيقة المعنى – للخلق كلهم؛ لأن على كل الخلائق ألا يغلوا في دينهم»[١].

ويقول ابن القيم: «سورة التكاثر سورة مكية نزلت خطابا لقوم لا يؤمنون بالبعث والنشور، وقد قال النبي ﷺ لأبى بكر وعمر وقد أكلوا لحم شاة: «**والذى نفسى بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة! أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم!**»[٢]، فهذا الحديث الصحيح صريح فى تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار،وأيضًا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه وأن الالهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيرًا بل أكثرهم قد الهاه التكاثر وخطاب القرآن عام لمن بلغه وان كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله فهو متناول لمن بعدهم وهذا معلوم بضرورة الدين..فالخطاب للإنسان من حيث هو إنسان»[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] يقول الشنقيطي: «الظاهر أنهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين خلفوا أنبياءهم وصالحيهم قبل نزول الآية فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

١- «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٢٥).

٢- أخرجه مسلم: [كتاب: الأشربة، باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، (٣/ ١٦٠٩)، رقم: (٢٠٣٨)].

٣- «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص: ١٩١).

وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكور في هذه الآية»[١].

وأما التعميم في الأحوال، فما نزل في حال ينبغي أن يعم ما يماثلها من أحوال، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، قال أهل النظر: «في هذا دليل على أن من أحل ما حرم الله، أو حرم ما أحل الله فقد أشرك»[٢].

وعن سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** «الصلاة مكيال، من أوفى أُوفِي له، ومن طفف فقد علمتم ما للمطففين»[٣]، فهذه آية في التجارة أخذنا منها فائدة في الصلاة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حذار.. حذار من التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣]»[٤]، فهذه آية وردت في القعود عن الجهاد أخذنا منها حرمة القعود عن شيء من مراضي الله جملة وعقوبة ذلك».

ثانيًا- المقارنة:

وهي أن يجمع ويقرن بين آيتين في موضوع واحد فيظهر له من المعاني ما لا يظهر في واحدة منهما، ومن ذلك ما فعله سهل بن عبد الله حين قرن بين قوله تعالى في حق

١- «أضواء البيان» (٤ / ٣٠٨).

٢- «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٤٨٢).

٣- «مصنف عبد الرزاق»: كتاب: [الصلاة، باب المحافظة على الأوقات (٢/ ٣٧٣)، (٣٧٥٠)]، وانظر: «الدر المنثور»: (٨ / ٤٤٢).

٤- «بدائع الفوائد» (٣/ ٦٩٩). وانظر للاستزادة: «الفوز الكبير في أصول التفسير» للدهلوي (ص: ١٩١)، و«فصول في أصول التفسير» لمساعد الطيار (ص: ١١١).

محمد ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد -١٣] وبين قوله تعالى في حق موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الآية الأولى دليل على تفضيله على الكليم، لأنه لم يخرج خوفًا منهم، كما خرج موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكنه [أُخرِج][1] كما قال الله تعالى: ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾ ولم يقل خَرجتَ ولا جَزِعت»[2].

قال الجاحظ: «وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس»[3].

فينبغي أن يبحث عن حكمة هذا الاقتران، والمعاني المقصودة من التزامه.

فمن قرائن القرآن ما ذكره الإمام فخر الدين حيث قال: «واعلم أنه تعالى قرن إلزام بر الوالدين بعبادته وتوحيده في مواضع:

أحدها – في هذه الآية: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

ثانيها – قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ثالثها – قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

قال: «وكفى بهذا دلالة على تعظيم حقهما ووجوب برهما والإحسان إليهما»[4].

وبيّن الإمام الحكمة في هذا الاقتران فكان مما قال: «إنما أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه:

١- في الأصل: «ولكنه خرج»، ولعل الصواب ما أثبته.

٢ – «تفسير التستري» (١٤٦).

٣ – «البيان والتبيين» (١/ ٤٢).

٤- «التفسير الكبير» (١٠/ ٧٦).

أحدها- أن نعمة الله تعالى على العبد أعظم، فلا بد من تقديم شكره على شكر غيره ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعم النعم، وذلك لأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده كما أنهما منعمان عليه بالتربية، وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود، بل بالتربية فقط، فثبت أن إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى.

ثانيها- أن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر، فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر.

ثالثها- أن الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عوضا البتة بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدان كذلك، فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضا ماليا ولا ثوابا، فإن من ينكر الميعاد يحسن إلى ولده ويربيه، فمن هذا الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى.

رابعها- أن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم، فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه وروادف كرمه، وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما، وإن كان الولد مُسيئًا إلى الوالدين ..»[(١)].

ومن قرائن القرآن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، قال ابن القيم: «وهذان الأصلان- وهما التوكل والعبادة- قد ذُكِرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

الثاني- قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

١- «التفسير الكبير» (٣/ ٥٨٦).

الرابع- قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس- قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

السادس- قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

قال: «فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»، قال: «وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»(١).

ثالثًا- المقابلة:

وهي أن يجمع القارئ بين الآية وما يقابلها من آيات فيظهر له من المعاني ما خفي عنه، فإن الأشياء بضدها تتميز، والفرق بينها وبين المقارنة أن الأولى تكون بين الآيات المتوافقة في الموضوع وهذه تكون بين المتقابلات.

ومن أمثلة المقابلة ما ذكره القرطبي حيث قال:« يقال إن من أعطى الحكمة والقرآن فقد أعطى أفضل مما أعطى من جمع علم الأولين من الصحف وغيرها، لأنه قال لأولئك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال عن القرآن: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

١- «مدارج السالكين» (١/ ٩٥).

وقال بعض الحكماء: «من أعطى العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه، ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم، فإنما أعطى أفضل مما أعطى أصحاب الدنيا، لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعًا قليلًا، فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وسمى العلم والقرآن ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]»(١).

وقال الفخر الرازي: ثم تفكر أن الله تعالى ما أَعطَى من العلم إلا القليل، قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وسمى الدنيا بأسرها قليلًا ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، فما سماه قليلًا لا يمكننا أن ندرك كميته، فما ظنك بما سماه كثيرًا!»(٢).

رابعًا- التركيب:

ونعني به أن الفائدة قد تؤخذ من تركيب آيتين أو أكثر معًا، يقول ابن القيم: «والمقصود: تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكما أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرا زائدا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن! لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به.

١- «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٣/ ٣٣٠) بتصرف.

٢- «التفسير الكبير» (٢/ ٤٠٠).

وهذا كما فهم ابن عباس من قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أن المرأة قد تلد لستة أشهر»[١].

ويقول النيسابوري: «قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨] مع قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ظاهر في أن العلماء بالله هم خير البرية، اللهم اجعلنا منهم»[٢].

ويقول الفيروزآبادي: «واعلم أن الشكوى إلى الله عَزَّوَجَلَّ لا تنافي الصبر؛ فإن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَ بالصبر الجميل، والنبيُّ إذا وَعَدَ لا يُخلِف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر الله عنه أنه وجده صابرًا، مع قوله: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وإنما ينافي الصبرَ شكوى الله، لا الشكوى إلى الله؛ كما رأى بعضهم رجلًا يشكو إلى آخر فاقة وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!»[٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فقد ذهب بعض العلماء إلى أنها دالة على تحريم الخمر، وذلك أن الآية دالة على أن الخمر مشتملة على الإثم، والإثم حرام لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣] فكان مجموع هاتين الآيتين دليلًا على تحريم الخمر[٤].

١- «إعلام الموقعين» (١/ ٣٥٤).

٢- «غرائب القرآن» للنيسابوري (٦/ ٥٤٥).

٣- «بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز» (ص: ٩٨٢).

٤- انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٢٩٢)، و«التفسير الكبير» (٦/ ٣٩٩).

وقد يُستعمل هذا التركيب بشكل أوسع من مجرد آيتين أو ثلاث إلى عملية «ربط للجزئيات بكلياتها، أي أنك تقرأ القرآن وأنت تربط جزئياته بالكليات فيتكون في ذهنك هرم تصاعدي حتى تصل إلى الغايات أو المقاصد ثم توحد بينها حتى تصل إلى المقاصد الكبرى»(١).

خامسًا- ملاحظة مواقع الأسماء الحسنى ومناسباتها:

يقول الغزالي: وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورا لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها»(٢).

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]، قال أبو جعفر النحاس: «وفي الآية سؤال يُقال هذا موضع قدرة، فكيف قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾؟ فالجواب: أنهم لما قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٨٨] كادت الجبال تزول، وكادت السموات ينفطرن، وكادت الأرض تخر لعظم ما قالوا فأسكنها الله عَزَّوَجَلَّ، وأخر عقابهم، وحلم عنهم؛ فذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾(٣)، وقال ابن جرير: «إن الله كان حليمًا عمن أشرك وكفر به من خلقه في تركه تعجيل عذابه له، غفورًا لذنوب من تاب منهم، وأناب إلى الإيمان به، والعمل بما يرضيه»(٤).

١- عشر رسائل من أجل فهم أفضل للقرآن الكريم، لمصطفى الحسن، مقال منشور على موقع: https: //www.facebook.com /notes /396908123679018

٢- «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٣).

٣- «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٤٦٥).

٤- «جامع البيان» (٢٠/ ٤٨٢).

وفي قوله تعالى على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في شأن من اتخذوه إلهًا من دون الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] تراه قال: «﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾»، ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم»، قال القرطبي: «لأنه قصد التسليم لأمره والتفويض لحكمه، ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه وذلك مستحيل»، وقال ابن الأنباري: «معنى الكلام: لا ينبغي لأحدٍ أن يعترض عليك، فإن عذبتهم، فلا اعتراض عليك، وإن غفرت لهم - ولست فاعلًا إذا ماتوا على الكفر - فلا اعتراض عليك»، وقال غيره: «العفو لا ينقص عِزَّك، ولا يخرج عن حكمك»[١].

سادسًا- ملاحظة الترتيب:

فإن للترتيب في القرآن حكمة، وللتقديم والتأخير معنى، والموفق من هدي إليه، يقول عبد القاهر الجرجاني: «وهو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان»[٢]، ففي قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، قال بعض السلف: «سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟! بدأ بالعفو قبل المعاتبة»[٣]، وقال ابن عطية: «قدم له ذكر العفو قبل العتاب إكرامًا له ﷺ»[٤].

١- «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٦/ ٣٧٨)، «زاد المسير في علم التفسير» (١/ ٦٠٦)، وللدكتور علي ابن سليمان العبيد بحثان طيبان عن ختم الآيات بالأسماء الحسنى ودلالتها أحدهما نظري، والآخر تطبيقي درس فيه الفاتحة والبقرة.

٢- «دلائل الإعجاز» (١/ ١٠٦).

٣- «تفسير القرآن العظيم» لابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٥).

٤- «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٨).

وفي قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢] يقول أبو السعود: «في تقديم اليهود على المشركين بعد لزهما في قرن واحد إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أن تقديمهم عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [البقرة: ٩٦] إيذانًا بتقدمهم عليهم في الحرص»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧] قال ابن عطية: «في تقديم ﴿رِجَالًا﴾ تفضيل للمشاة في الحج، قال ابن عباس: ما آسى على شيء فاتني إلا أن أكون حججت ما شيا، فإني سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١] قال البيضاوي: «وفي تقديم الظرف ﴿فِيهَا﴾ تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة»[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] قيل: «قدم الظالم لئلا ييأس من رحمته وأخر السابق لئلا يعجب بعمله»، وقيل: «إنما رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لأن أحوال العبد ثلاث: معصية، وغفلة، ثم توبة وقربة. فإذا عصى دخل في حيِّز الظالمين، وإذا تاب دخل في جملة المقتصدين وإذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة خل في عداد السابقين»، وقيل: «في تقديم الظالم ثم المقتصد إيذان بأن المقتصدين أكثر من السابقين، والظالمون أكثر الأقسام، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]»[٤].

١- «إرشاد العقل السليم» (٣/ ٧١).

٢- «المحرر الوجيز» (٤/ ١١٨).

٣- «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٢٥).

٤- «الكشف والبيان» للثعلبي (٨/ ١٠٨)، «غرائب القرآن» للنيسابوري (٥/ ٥١٧).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣] يقول أبو السعود: «الفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله تعالى، وفي تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعار بأنه لا ينفع دونها»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١] قالوا: «في تقديم (عَدُوِي)، إشارة إلى أنه المهم، وإن فرض أن لم يكن عدوًا لهم»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦] يقول نظام الدين النيسابوري: «في تقديم الظرف مزيد تقريع! يعني أنه لنعمة ربه خصوصًا لشديد الكفران، فكيف نعمة غيره مثل الأبوين ونحوهما؟!»[٣].

سابعًا- ملاحظة التقسيم:

فإن من يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠٠- ٢٠١] يلحظ أن ثمة قسما ثالثا لم يذكر، وهو من يسأل الله الآخرة فحسب، فينبغي عليه أن يبحث عن الحكمة في السكوت عنه.قال الرازي: واختلفوا في أن هذا القسم هل هو مشروع أو لا؟ والأكثرون على أنه غير مشروع؛ وذلك أن الإنسان خلق محتاجًا ضعيفًا، لا طاقة له بآلام الدنيا، ولا بمشاق الآخرة، فالأولى له أن يستعيذ بربه من كل شرور الدنيا والآخرة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ، عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله

١- «إرشاد العقل السليم» (٤/ ٢٤٩).

٢- «غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني» لشهاب الدين الكوراني (ص: ١٤٢).

٣- «غرائب القرآن» للنيسابوري (٦/ ٥٥٠).

ﷺ: «**هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟**» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: اللهم** ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] « قال: فدعا الله له، فشفاه»[١]، واعلم أنه سبحانه لو سلط الألم على عرق واحد في البدن، أو على منبت شعرة واحدة لشوش الأمر على الإنسان، وصار بسببه محرومًا عن طاعة الله تعالى، وعن الاشتغال بذكره، فمن ذا الذي يستغني عن إمداد رحمة الله تعالى في أولاه وعقباه، فثبت أن الاقتصار في الدعاء على طلب الآخرة غير جائز، وفي الآية إشارة إليه حيث ذكر القسمين وأهمل هذا القسم الثالث»[٢].

ومنه قوله تعالى في قصة أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥] ينبغي الالتفات إلى أن ثمة قسمًا ثالثًا هم الساكتون المذكورون في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤] فما شأنهم؟، عن عكرمة أنه رأى ابن عباس قرأها فبكى ثم قال: أرى الذين نَهَوْا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها فلا نقول فيها! قال قلت: إنَّ جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾؟ قال: فأمَرَ بي فكُسيتِ بُرْدَين غليظين»[٣].

١- أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب: [الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (٤/ ٢٠٦٨)، (٢٦٨٨)].

٢- «التفسير الكبير» (٥/ ٣٣٦).

٣- «جامع البيان» للطبري (١٣/ ١٨٩) وقال الشيخ شاكر: «إن» في قول عكرمة بمعنى نعم، يعنى: إنه قد كان، وإنهم قد نجوا.

ثامنًا- ملاحظة مفهوم العبارة:

فكما أن للكلام دلالة بمنطوقه، كذلك له دلالة بمفهومه، ويقصد بالمنطوق: ما فهم من دلالة اللفظ قطعا في محل النطق، وبالمفهوم: ما فهم من اللفظ في غير محل النطق، وهو نوعان: أحدهما- مفهوم الموافقة: وهو ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت موافقا لمدلوله في محل النطق، وثانيهما- مفهوم المخالفة: وهو ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت مخالفا لمدلوله في محل النطق»[1].

فمن ملاحظة مفهوم الموافقة أن يلاحظ القاريء تنبيه الآيات بالأدنى على الأعلى وبالأعلى على الأدنى.

فأما التنبه بالأدنى على الأعلى فنحو قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨] قال الفضيل: «لم تتزين العباد بشي أفضل من الصدق، والله عَزَّوَجَلَّ سائل الصادقين عن صدقهم، فكيف بالكذابين المساكين؟! ثم بكى»[2].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] يقول أبو جعفر النحاس: «فإن قيل: ما الفائدة في كتبه وهو يعلمه؟ فالجواب عن هذا: أنه لتعظيم الأمر، أي: اعلموا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف بما فيه ثواب وعقاب؟!»[3].

١- «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣/ ٦٩).

٢- «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٨/ ٤٤).

٣- «معاني القرآن» (٢/ ٤٣٧).

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٥] قال يحيى بن معاذ: «هذا رفقك بمن يدعي الربوبية فكيف رفقك بمن يدعي العبودية؟ وقيل: هذا رفقك بمن آذاك، فكيف رفقك بمن يؤذي فيك؟ وهذا رفقك بمن عاداك، فكيف رفقك بمن عادى فيك؟ وهذا رفقك مع أعدائك فكيف رفقك مع أوليائك؟»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] قال ابن كثير: «نبه على شرف الظهارة بشرف البطانة، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى، عن عبد الله ابن مسعود قال: هذه البطائن، فكيف لو رأيتم الظواهر؟!»[٢].

وأما التنبيه بالأعلى على الأدنى فنحو قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥] يقول أبو جعفر النحاس: «هذا حكم الله فيمن عصاه من الأنبياء فكيف غيرهم»[٣].

ونحو قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] يقول السمرقندي: «معناه: لو زاد حرفًا واحدًا على ما أوحيته إليه أو نقص، لعاقبته، وكان هو أكرم الناس عليَّ، وفي الآية تنبيه لغيره؛ لكيلا يغيروا شيئًا من كتاب الله تعالى، ولا يتقولوا فيه شيئًا من ذات أنفسهم»[٤].

١- «حقائق التفسير» لأبي عبد الرحمن السلمي (١/ ٤٤٥).

٢- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٧/ ٥٠٣).

٣- «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٧٩).

٤- «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٣).

ونحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان: ٣٣] قال صديق خان: «ذكر سبحانه هنا فردين من القرابات، وهما: الوالد والولد، وهما الغاية في الحنو والمحبة والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القرابات لا يجزي بالأولى، فكيف بالأجانب»[١].

ومن ملاحظة مفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥] يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في حال الرضا»[٢].

ويقول ابن تيمية: «قوله ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله[٣]، ودلالة بمفهومه: فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان؛ فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين؛ فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة»[٤].

وفي قوله تعالى في صفة الكفار: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨] يقول الرازي: «خصهم بذلك فوجب أن يكون حال المسلم بخلافه بناء على مسألة دليل الخطاب»[٥].

١- «فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٠/ ٣٠٢).

٢- «معرفة السنن والآثار» للبيهقي (١/ ١٩٢).

٣- دلالة الإيماء: أن يقترن اللفظ بوصف، لو لم يكن هو أو نظيره للتعليل لكان بعيدا، فيحمل على التعليل دفعا للاستبعاد، «إرشاد الفحول» للشوكاني (٢/ ١٢١).

٤- «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٧).

٥- «التفسير الكبير» لفخر الدين الرازي (٣/ ٥٧).

تاسعًا- ملاحظة العلاقة بين العمل وجزائه:

إذا قرأت جزاءً فلاحظ العمل قبله، فإن الجزاء من جنس العمل، يقول الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابًا ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص: ٥٧]، يقول (الغساق): عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى»[١].

ويقول ابن الجوزي: «ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه لما امتدت أيدي الظلم من إخوة يوسف ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ ﴾ [يوسف: ٢٠] امتدت أكفهم بين يديه بالطلب، يقولون: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ [يوسف: ٨٨]»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ يقول السعدي: «فأولئك ﴿ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته، ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله»[٣].

١- «الكشاف» للزمخشري (٤/ ١٠٢) وعن أبي هبيرة الزيادي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: أيّ شيء الغسَّاق؟ قالوا: الله أعلم، فقال عبد الله بن عمرو: هو القَيْح الغليظ، لو أن قطرة منه تُهَرَاق في المغرب لأنتنت أهل المشرق، ولو تُهَرَاق في المشرق لأنتنت أهل المغرب. وقال ابن قتيبة: الغسّاق: ما يَسيل من جلود أهل النار وهو الصديد، يقال: غَسَقتْ عينُه؛ إذا سالتْ، «جامع البيان» للطبري (٢١/ ٢٢٧)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٨١).

٢- «صيد الخاطر» (ص: ١٥).

٣- «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٧).

عاشرًا- ملاحظة شروط الوعد وأسباب الوعيد:

إذا قرأت وعدا فلاحظ شرطه المقترن به، فقلما كان الوعد إلا مشروطا، وكذا الوعيد. يقول الغزالي: «لا يُرى ذكرُ المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾، ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، ذكر أربعة شروط، وحيث اقتصر ذكر شرطا جامعا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالإحسان يجمع الكل»[١].

وعن الوليد بن مسلم قال: «أضاف بأبي شيخ من أهل الحجاز فبات ليلته يردد هذه الآية ويبكي إلى الصباح ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فلما غدا إلى المسجد غدوت معه، فقلت له: يا عم لقد أبكتك الليلة آية ما يبكى عند مثلها! إنها آية رحمة! فقال لي: يا ابن أخي وما ينفعني أو يغني عني عرضها إن لم يكن لي فيها موضع قدم»[٢].

وعلى قدر الوفاء بالشرط يكون تحقق الوعد فمن وفى وفى الله له ومن نقص فلا يلومن إلا نفسه، قال ابن القيم: «فمن كان عبدًا لله قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب فذلك الذي تناوله قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، فالكفاية التامة مع العبودية التامة، والناقصة [مع الناقصة]، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[٣].

١- «الإحياء» (١/ ٢٨٥).

٢- «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٧/ ٢٣٦).

٣- «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص: ٦) باختصار.

وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨] دفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله. ومادةُ الإيمان وقوتُه بذكر الله تعالى، فمن كان أكمل إيمانًا وأكثر ذكرًا كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكرًا بذكر ونسيانًا بنسيان»(١).

وهذا مبني على قاعدة مفادها: «أن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوته، وينقص بنقصه»(٢).

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] يقول الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»(٣).

الحادي عشر- ملاحظة فروق التعبير:

ما زال العلماء يستنبطون المعاني الدقيقة واللطائف الخفية من ملاحظة الفروق اللغوية والأسلوبية بين كلمات القرآن آياته، وقد تكون هذه الفروق بين ألفاظ القرآن أو بين تراكيبه، وقد تكون واضحة قريبة الفهم تدرك بأدنى تأمل، وقد تدق حتى لا يدركها إلا الماهر بأساليب العرب العالم بدقائق كلامها.

ويساعد القارئ على التمرس بهذا الأسلوب إتقان علوم البلاغة العربية، ودراسة كتاب أو أكثر من كتب الفروق اللغوية.

١- المرجع السابق (ص: ٧٢).

٢- «قواعد التفسير جمعًا ودراسة»، د.خالد السبت (٢/ ٤٥).

٣- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٨/ ٢٧١).

فمن ذلك ما تراه من الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ قال ابن عطية في الأولى: «والكلام هنا يقضي أن فتحها إنما يكون بعد مجيئهم، وفي وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم، وهكذا هي حال السجون، ومواضع الثقاف والعذاب، بخلاف قوله في أهل الجنة: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾، فالواو مؤذنة بأنهم يجدونها مفتوحة، كمنازل الأفراح»، قال الزمخشري: بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا﴾ [ص: ٥٠][١].

ومنها ما ذكره الفخر الرازي حيث قال: «ما السبب في أنه لم يقل: (قل) ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]؟ وقال في سورة الكافرون ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]؟، الجواب من وجوه:

الأول- لأن قرابة العمومة تقتضي رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له «قل ذلك» لئلا يكون مشافهًا لعمه بما يسوؤه، بخلاف السورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعمامًا له.

الثاني- أن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله، فقال الله تعالى: يا محمد أجب عنهم ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وفي هذه السورة طعنوا في محمد، فقال الله تعالى: اسكت أنت فإني أجيبهم ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾.

الثالث- لما شتموك فاسكت حتى تندرج تحت هذه الآية ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] وإذا سكتَّ أنت أكون أنا المجيب عنك، واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفيه كان الله ذابًا عنه وناصرًا له ومعينًا»[٢].

١- «المحرر الوجيز» (٤/ ٦١٠)، و«الكشاف» (٤/ ١٥٠).

٢- «التفسير الكبير» (٣٢/ ١٥٥) باختصار وتصرف.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف قيل: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ بإذا وتعريف الحسنة، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بإن وتنكير السيئة؟ قلت: لأنّ جنس الحسنة وقوعه [كالغالب] لكثرته واتساعه، وأمّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها. ومنه قول بعضهم: قد عددت أيام البلاء، فهل عددت أيام الرخاء»(١)، ومثله قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] كدليل على أن رحمته سبحانه غلبت غضبه.

الثاني عشر- ملاحظة الإشارة(٢):

والمعنى الإشاري إنما يقبل بشرائط ذكر منها ابن القيم أربعة هي: «أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحًا في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم؛ فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا»(٣).

والأصل فيه ما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في سورة النصر حيث قال: «هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له»، وأقره عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلًا: «ما أعلم منها إلا ما تعلم»، قال ابن حجر: «وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم، ولهذا قال علي رضي الله تعالى عنه: أو فهما يؤتيه الله رجلا في القرآن»(٤).

١- «الكشاف» (٢/ ١٤٤) بتصرف يسير، وانظر: «نظم الدرر» (١٥/ ٩٥).

٢- التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضًا. وقد اختلف العلماء في جوازه، فمنهم من أجازه ،ومنهم من منعه. انظر: «مناهل العرفان» للزرقاني (٢/ ٧٨)، و«التفسير والمفسرون» (٢/ ٢٦١).

٣- «التبيان في أقسام القرآن » (ص: ٧٩) ، وانظر: «كلام الشاطبي في الموافقات» (٤/ ٢٣٢) وما بعدها.

٤- «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٧٣٦).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] حيث قال فيه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي، ولا يجد طعمه ويلتذ بقراءته وفهمه وتدبره إلا من آمن به، ولم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن قال إن له باطنًا يخالف ظاهره ففي قلبه منه حرج، ومن لم يُحكّمه ظاهرًا وباطنًا في أصول الدين وفروعه ففي قلبه منه حرج، ومن لم يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره ففي قلبه منه حرج. وكل هؤلاء لا تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم، وأنت إذا تأملت قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ وأعطيت الآية حقها .. فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ [النساء: ١١] قال الفخر: «وفي الآية إشارة إلى الانقياد إلى الشرع وترك ما يميل إليه الطبع»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣] قال الآلوسي: «وفي الآية إشارة إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها ليس من أخلاق من يطلب النجاة، وجاء عن الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل. وعن علي كرم الله تعالى وجهه: «إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل، واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق»[٣].

١- «التبيان في أقسام القرآن» (ص: ١٤٣) باختصار.

٢- «التفسير الكبير» (٩/ ٥١٩) وانظر: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» للثعالبي (١/ ٣٥٤).

٣- «روح المعاني» (٧/ ٢٥٧).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] قال الآلوسي: «وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عاملا عملا صالحا ليكون الناس إلى قبول دعائه أقرب وإليه أسكن»(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨] يقول ابن عاشور: «وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لا يثق إلا بالله لأن التوكل على الأحياء المعرضين للموت وإن كان قد يفيد أحيانا لكنه لا يدوم»(٢).

الثالث عشر- تنزيل الآيات على الواقع :

على من أراد أن ينتفع بالقرآن أن يُديم تنزيل آياته على واقعه الذي يحياه، وسبيله أن يعرض نفسه وواقعه على كتاب الله تعالى، وأن يطلب شاهدا من القرآن في كل موقف يمر به في ليله ونهاره.

وإنما يحرم كثير من الخلق فهم القرآن والانتفاع به حين يظنون أن آيات القرآن نزلت لواقع غير واقعهم، ولقوم غير قومهم، ولأناس غير أنفسهم، فإذا ذكر الظالمون فهم فرعون وهامان وقارون، وإذا ذكر المتقون فهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وإذا ذكر أهل الجنة فهم العشرة المبشرون، وإذا ذكر أهل النار فهم الكفرة المشركون !! فكيف ينتفع بالقرآن من لا يرى لنفسه فيه ذكرا، ولا لحاله فيه حكما، ولا لدائه فيه دواء.

يقول ابن القيم: «أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته -يعني القرآن-، وتضمنه له، ويظنونه في نوع، وفي قوم قد خلوا من قبل، ولم يعقبوا وارثا! وهذا هو الذي

١- المرجع السابق (١٢/ ٣٧٤).

٢- «التحرير والتنوير» (١٩/ ٥٩).

يحول بين القلب وبين فهم القرآن. ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك»[١].

إن القرآن رفيق الحياة ودليلها، لا ينتفع به إلا من عاش به ومات عليه، عن عامر بن مطر قال: قال لي حذيفة: كيف أنت يا عامر بن مطر إذا أخذ الناس طريقا والقرآنُ طريقاً مع أيهما تكون؟ قال عامر: فقلت له مع القرآن، أحيا مع القرآن وأموت! قال قال: فأنت أنت إذا!»[٢]، قال ابن حزم: اللهم إني أقول كما قال عامر: أكون والله مع القرآن، أحيا متمسكا به، وأموت إن شاء الله متمسكا به، ولا أبالي بمن سلك غير طريق القرآن ولو أنهم جميع أهل الأرض غيري»[٣].

وهذا الأسلوب يحتاج إلى أن يكون الإنسان حافظا متقنا لكتاب الله تعالى، ممتلكا مع ذلك مهارة استحضار الآيات في كل موقف وحادث يمر به في حياته اليومية، فإن لم يتيسر له الحفظ كان عليه أن يدمن القراءة باحثا منقبا عن الآيات التي تعالج مشاكله، وتداوي أمراض نفسه ومجتمعه.

وقد يحتاج الحافظ المتقن إلى مثل هذه المراجعة والتلاوة إذا لم تسعفه ملكة الاستحضار في استدعاء الآية التي يريد.

بينما الشافعي في مجلسه إذ جاءه شيخ عليه ثياب صوف، وفي يده عكازة، فسلم وجلس، وأخذ الشافعي ينظر إلى الشيخ هيبة له؛ إذ قال الشيخ: «أسأل؟ قال: سل، قال: ما الحجة في دين الله؟ قال: كتاب الله. قال: وماذا؟ قال: سنة رسول الله ﷺ. قال:

١- «مدارج السالكين» (١/ ٣٥١).

٢- «مصنف ابن أبي شيبة» (٧/ ٤٨٥)، (٣٧٤٢٦).

٣- «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٤/ ١٨٦).

وماذا؟ قال: اتفاق الأمة. قال: من أين قلت: اتفاق الأمة؟ من كتاب الله؟ أم من سنة رسول الله ﷺ؟ فتدبر الشافعي ساعة، فقال الشيخ: قد أجلتك ثلاثا، فإن جئت بحجة من كتاب الله، وإلا تب إلى الله تعالى! فتغير لون الشافعي! ثم إنه ذهب فلم يخرج إلى اليوم الثالث بين الظهر والعصر، فخرج وقد انتفخ وجهه ويداه ورجلاه، وهو مِسقَامٌ![1] فجلس، فلم يكن بأسرع من أن جاء الشيخ، فسلم وجلس، فقال: حاجتي! فقال الشافعي: نعم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١١٥] ، قال: فلا يصليه على خلاف المؤمنين إلا وهو فرض. فقال: صدقت، وقام فذهب. فقال الشافعي: قرأت القرآن في كل يوم وليلة ثلاث مرات حتى وقفت عليه»[2].

ووقائع الحياة مهما كثرت وتنوعت لن يعدم الإنسان في كتاب الله حكما لها، وبيانا لصوابها وخطئها، إجمالا كان هذا البيان أو تفصيلا، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدًى وَرَحۡمَةً وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

قال أبو حامد الغزالي: «كل ما أشكل على النظار، واختلف فيه الخلائق، في النظريات والمعقولات؛ ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها»[3].

١ - المِسقام: السقيم، وَقيل: هُوَ الْكثير السقم، انظر: «المحكم» لابن سيده (٦/ ٢٥١).

٢ - «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥١/ ٣٦٣) باختصار يسير.

٣ - «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٩).

وقال الشاطبي: «لا أحد من العلماء لجأ إلى القرآن في مسألة إلا وجد لها فيه أصلًا، وأقرب الطوائف من إعواز المسائل النازلة أهل الظواهر الذين ينكرون القياس، ولم يثبت عنهم أنهم عجزوا عن الدليل في مسألة من المسائل»(١).

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهذا ابن حزم الظاهري رجل أبطل القياس والرأي والاستحسان(٢) وضيق مفهوم الإجماع، ولم يعجز عن دليل؛ بل كان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل فى الكتاب والسنة نعلمه والحمد لله...»(٣)، بل ربما كان لمذهبه الظاهري أثر في دفعه دفعا إلى إثارة النصوص الشرعية واستثمارها أفضل استثمار، وقد قال بعضهم: «من اتسع علمه بالنصوص قلت حاجته إلى القياس، كالواجد ماء لا يجزئه التيمم، وإنما يحتاج إليه في القليل»(٤).

والمقصود أن من أراد الانتفاع بالقرآن فليصل ما بين واقعه وبين القرآن، ويجعله ميزانا يزن به أمره، وفرقانا يفرق به بين حقه وباطله، ودواء يداوي به داءه.

ومن أمثلة ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] يقول القرطبي: «وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق وقد أخبر ﷺ أن ذلك يكون. كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس...**»(٥).

١- «الموافقات في أصول الشريعة» (٣/ ٣٧١).
٢- راجع: «ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل» لابن حزم .
٣- «مراتب الإجماع» لابن حزم (ص: ٩١) .
٤- «المسودة في أصول الفقه» (ص: ٥٢٠).
٥ -«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٣/ ١٢٤)، والحديث أخرجه مسلم في «صحيحه»: [كتاب اللباس

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] يقول الغزالي: «وكذلك من كسر غصنا من شجرة، من غير حاجة ناجزة مهمة، ومن غير غرض صحيح، فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد: أما اليد فإنها لم تخلق للعبث؛ بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة. وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نُشُوّه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل»(١).

ويقول ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكز خان(٢)، الذي وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير»(٣).

والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات، (٣/ ١٦٨٠)، (٢١٢٨)].

١- «إحياء علوم الدين» (٤/ ٩٤).

٢- جَنكِز خان ملك التتار وسلطانهم الأول الذي خرب البلاد، وأفنى العباد، واستولى على الممالك وليس للتتار ذكر قبله، إنما كانت طوائف المغول بادية بأراضي الصين، فقدموه عليهم، وأطاعوه في كل شيء، مات في رمضان، سنة أربع وعشرين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٤٣).

٣- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ١٣١).

الرابع عشر- التماس الحكمة الإلهية في كل أمر ونهي وقضاء وقدر:

فقد وصف الله كتابه بـــ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وجعل من أسمائه الحسنى أنه سبحانه ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] وهو ما يعني أنه تعالى «ما خلق شيئًا إلا لحكمة، ولا شرع شيئًا إلا لحكمة، وحُكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة»[١]. وكذا ما أخبر الله من خبر ولا قص علينا من قصة إلا وفي ضمنها حكمة عالية، وعبرة بالغة، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

وقد توجد هذه الحكمة منصوصة في الآية أو في غيرها،من قرآن أو سنة، وقد تستنبط من مجموعة نصوص، وقد تفهم من السياق، وقد تكون حكمة عقلية تفهم بممارسة الحياة وإدراك واقع البشر.

وطلب هذه الحكم -دون مغالاة أو تكلف- أمر محمود فإن لمعرفة حكمة الله في قضائه وقدره وتشريعه آثارا لا تنكر في اطمئنان القلوب إلى عدل الله ورحمته، وفي إزالة شبهة تعرض للنفس، وفي المسارعة إلى الامتثال عند الأمر، وفي الرضا بالقضاء عند نزوله... إلخ.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن هذه الحكمة ليست منصوصة في كل شيء، ولا هي واضحة لكل أحد، وقد يخطئ العالم في تعيينها، وقد يخفيها الله اختبارا لتسليم العباد، والحكم الإلهي واجب الطاعة في كل حين، وعلى كل حال ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

١- «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص: ٧٧١).

أمثلة:

* في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء: ٣٥] قال ابن العربي: «والحكمة في ذلك أن الأهل أعرف بأحوال الزوجين، وأقرب إلى أن يرجع الزوجان إليهما»(١)، قلت: «وأحرص على الإصلاح، وأبعد من التهمة، وأستر لأسرار الزوجين».

* وفي قصة بقرة بني إسرائيل يقول أبو البركات النسفي: «والحكمة في ذبح البقرة وضربه ببعضها –وإن قدر على إحيائه بلا واسطة– الإشعارُ بحسن تقديم القربة على الطلب، والتعليم لعباده ترك التشديد في الأمور والمسارعة إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيش وتكثير سؤال، وغير ذلك. وقيل: إنما أمروا بذبح البقرة دون غيرها من البهائم؛ لأنها أفضل قرابينهم، ولعبادتهم العجل، فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم»(٢).

* وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦] قال نجم الدين النيسابوري: «والحكمة في الإنذار مع العلم بالإصرار إقامة الحجة، وليكون الإرسال عامًا، وليثاب الرسول»(٣).

* وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٤] قال الإمام فخر الدين: «والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان أن من حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يؤمَن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين، وأيضًا كلما كان الإنسان أكثر تعظيمًا لله تعالى

١- «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٤٢).
٢- «مدارك التنزيل» (١/ ١٠٠).
٣- «إيجاز البيان عن معاني القرآن» (١/ ٦٦).

كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجل وأعلى عنده من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية»[١].

* وفي قوله تعالى في شأن جلد الزانية والزاني: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] قال القشيري: «أي ليكون عليهم أشدّ، وليكون تخويفًا لمتعاطى ذلك الفعل، ثم من حقّ الذين يشهدون ذلك الموضع أن يتذكروا عظيم نعمة الله عليهم أنهم لم يفعلوا مثله، وكيف عصمهم من ذلك. وإن جرى منهم شيء من ذلك يذكروا عظيم نعمة الله عليهم كيف ستر عليهم ولم يفضحهم، ولم يقمهم فى الموضع الذي أقام فيه هذا المبتلى به»[٢]، وزاد الرازي: «ولما فيه من رفع التهمة عمن يجلد»، وقيل: «أراد بالطائفة الشهود؛ لأنه يجب حضورهم ليُعلمَ بقاؤهم على الشهادة، قال: «ونبه تعالى بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أن الذين يشهدون يجب أن يكونوا بهذا الوصف، لأنهم إذا كانوا كذلك عظم موقع حضورهم في الزجر، وعظم موقع إخبارهم عما شاهدوا، فيخاف المجلود من حضورهم الشهرة، فيكون ذلك أقوى في الانزجار، والله أعلم»[٣].

* وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] يقول الإمام فخر الدين: «ذَكَرَ قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وكيفية أحواله، والحكمة فيه أن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، [فالمشركون][٤] كانوا معترفين بفضله

١- «التفسير الكبير» (٦/ ٤٢٥) وكلامه محمول على أن معنى الآية: لا تكثروا الحلف بالله، وهو اختياره، وأكثر المفسرين على أن المعنى: لا تجعلوا الله علة ومانعا لكم من البر والتقوى، وأنها نزلت في الرجل يحلف بالله تعالى لا يصل رحمه، ولا يكلم قرابته، ونحو ذلك. انظر: «الكشف والبيان» للثعلبي (٢/ ١٦٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٣/ ٩٧).

٢- لطائف الإشارات (٢/ ٥٩٤).

٣- التفسير الكبير (٢٣/ ٣١٧).

٤- في الأصل «فالمشركين» وهو لحن لا يخفى.

متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته. وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضًا مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أمورا توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد ﷺ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه..»[١].

* وفي قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٤٢، ٤٣]، يقول الإمام: «المعنى لا تنيا؛ بل اتخذا ذكري آلة لتحصيل المقاصد، واعتقدا أن أمرا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري، والحكمة فيه أن من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحدا، ولأن من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في المقصود، ولأن ذاكر الله تعالى لا بد وأن يكون ذاكرا لإحسانه وذاكر إحسانه لا يفتر في أداء أوامره»[٢].

ومن أراد توسعا في فهم حكمة القرآن فعليه بالإمام فخر الدين، فهو فارس ذلك الميدان، والناس فيه رجال[٣]. وفي كتب مقاصد الشريعة ومحاسنها من ذلك شيء كثير.

الخامس عشر- التساؤل:

ينبغي للمتدبر أن يثير التساؤلات التي تفتح له أبواب الفهم في القرآن، وتفك له مغاليقه، وعليه أن يعلم أننا لا نهدف بهذه الأسئلة إلى محاكمة القرآن، حاشا لله ولكتابه، بل نسعى بها إلى تحريك العقول نحو التماس معانيه وفهم إشاراته، وأسئلتنا هي أسئلة

١- «التفسير الكبير» (٤/ ٣٠).

٢- «التفسير الكبير» (٢٢/ ٥٢).

٣- «رجال»: جمع «راجل»، وهو الماشي على رجليه. وانظر: «بيان حكمة القرآن» عند الفخر، «التفسير الكبير» (١/ ٩٥)، (٦/ ٣٩٦)، (٦/ ٤٨٣)، (٧/ ١٥٧)، (٩/ ٥٣٠)، (١٠/ ٤٩)، (١٢/ ٤٨٧)، (١٥/ ٤٨٨)، (١٦/ ٧٧) وغيرها.

جاهل يتعلم لا عالم يحاكم، وقد نطلب الفهم ولا نعطى فلا يبقى إلا مواصلة البحث مع الباحثين، أو تسليم كتسليم الراسخين، قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، موقنين أن الناس ﴿لَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد أكثر المفسرون من أسلوب السؤال والجواب مستعملين إياه في إثارة مكنونات القرآن، والتماس غرائب معانيه، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] نرى الرازي يطرح أسئلة منها: لماذا كان العلم سببا في الخشية؟ وما العلم الذي ينتج هذه الخشية؟ ثم يقول أحسن الله إليه: أما بيان أن العالم بالله يجب أن يخشاه؛ فذلك لأن من لم يكن عالما بالشيء استحال أن يكون خائفا منه، ثم إن العلم بالذات لا يكفي في الخوف، بل لا بد له من العلم بأمور ثلاثة، منها:

* العلم بالقدرة؛ لأن الملك عالم باطلاع رعيته على أفعاله القبيحة، لكنه لا يخافهم لعلمه بأنهم لا يقدرون على دفعها.
* ومنها: العلم بكونه عالما، لأن السارق من مال السلطان يعلم بقدرته، ولكنه يعلم أنه غير عالم بسرقته فلا يخافه.
* ومنها العلم بكونه حكيما، فإن المسخر عند السلطان عالم بكون السلطان قادرا على منعه، عالما بقبائح أفعاله؛ لكنه يعلم أنه قد يرضى بما لا ينبغي فلا يحصل الخوف، أما لو علم اطلاع السلطان على قبائح أفعاله، وعلم قدرته على منعه، وعلم أنه حكيم لا يرضى بسفاهته، صارت هذه العلوم الثلاثة موجبة لحصول الخوف في قلبه.

فثبت أن خوف العبد من الله لا يحصل إلا إذا علم بكونه تعالى عالما بجميع المعلومات، قادرا على كل المقدورات، غير راض بالمنكرات والمحرمات. فثبت أن الخوف من لوازم العلم بالله»[١].

وقد يكون السؤال بكيف، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] يتبادر إلى الذهن سؤال هو: كيف تزيدهم آيات القرآن إيمانا ؟ وقد أجاب العلماء بأجوبة منها :

١- أن الآيات تتضمن من الدلائل ما يزيد الإيمان، وبكثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين.

٢- أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ويقرون به فكلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد فكان ذلك زيادة في الإيمان والتصديق.

٣- أو يزيد بالعمل بموجبها، وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه[٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩] قال المرتضى: فإن سأل سائل، كيف يصح أن يسأل من لا ذنب له ولا عقل، فأي فائدة في سؤالها عن ذلك، وما وجه الحكمة فيه؟ والجواب من وجهين:

أحدهما- أن يكون المراد أن قاتلها طولب بالحجة في قتلها، سئل عن قتله لها بأي ذنب كان، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة. فالقتلة هاهنا هم المسؤولون على

١- «التفسير الكبير» (٢/ ٤٠٦).

٢- انظر: «جامع البيان» للطبري (١٤/ ٥٧٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٢/ ٤٤٤)، و«التفسير الكبير» للرازي (١٥/ ٤٥١)، و«أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣/ ٤٩).

الحقيقة، لا المقتولة، وإنما المقتولة مسؤول عنها. ويجري هذا مجرى قولهم (سألت حقي) أي طالبت به ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، أي مطالبا به مسؤولا عنه.

والوجه الآخر- أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة، على سبيل التوبيخ له، والتقريع له، والتنبيه له، على أنه لا حجة له في قتلها. ويجري هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، على طريق التوبيخ لقومه، وإقامة الحجة عليهم»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، قال الثعلبي: فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ وهم كفّار لم يكونوا في نور قط؟، ثم أجاب هو وغيره بأجوبة منها:

١- أن الآية في اليهود كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به وجحدوا ما وجدوه في كتبهم من نعته وصفته ونبوّته بيانه قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[البقرة: ٨٩]، قاله مقاتل وقتادة.

٢- أنها نزلت في قوم مُرْتَدِّين، قاله مجاهد.

٣- أنها في جميع الكفّار، والمعنى أنهم لما كانوا متمكنين من الإسلام ثم عُدلوا وصُرفوا عنه؛ فكأنهم أخرجوا منه، وهو كقول القائل: أخرجني أبي من ميراثه، وهو لم يدخل فيه، وكقوله تعالى إخبارا عن يوسف: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧] ولم يكن أبدا على دينهم حتّى تركه، وكقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠] ولم يكن فيه قط.

١- «محاسن التأويل» (٩/ ٤١٣).

٤- أنهم كانوا على الفطرة عند أخذ الميثاق عليهم، فلما حملوهم على الكفر أخرجوهم من نور فطرتهم[(١)].

السادس عشر- ملاحظة أساليب القرآن التربوية والاقتداء بها:

وهذا الأسلوب أشار إليه الشاطبي حين قال: فإن من علوم القرآن قسما هو مأخوذ من عادة الله تعالى في إنزاله، وخطاب الخلق به،، قبل النظر إلى ما حواه من المعارف والخيرات، ويشتمل على أنواع من القواعد الأصلية، والفوائد الفرعية، والمحاسن الأدبية؛ فلنذكر منها أمثلة يستعان بها في فهم المراد:

* منها: ترك الأخذ من أول مرة بالذنب، والحلم عن تعجيل المعاندين بالعذاب، وإن استعجلوا بالعذاب.

* ومنها: تحسين العبارة بالكناية ونحوها في المواطن التي يحتاج فيها إلى ذكر ما يستحيا من ذكره في عادتنا؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦].

* ومنها: التأني في الأمور، والجري على مجرى التثبت، والأخذ بالاحتياط، وهو المعهود في حقنا؛ فلقد أنزل القرآن على رسول الله ﷺ نجوما في عشرين سنة؛ حتى قال الكفار: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

* ومنها: كيفية تأدب العباد إذا قصدوا باب رب الأرباب بالتضرع والدعاء؛ فقد بين مساق القرآن آدابا استقرئت منه، وإن لم ينص عليها بالعبارة؛ فقد أغنت إشارة

١- انظر: «الكشف والبيان» (٢/ ٢٣٨)، و«النكت والعيون» (١/ ٣٢٩)، و«النكت في معاني القرآن وإعرابه» للمجاشعي (ص: ١٦٧)، و«تفسير السمعاني» (١/ ٢٦١)، و«محاسن التأويل» (٧/ ٢٤٤).

التقرير عن التصريح بالتعبير، فأنت ترى أن نداء الله للعباد لم يأت في القرآن في الغالب إلا بـ«يا» المشيرة إلى بعد المنادِي؛ لأن صاحب النداء منزه عن مداناة العباد، موصوف بالتعالي عنهم والاستغناء، فإذا قرر نداء العباد للرب أتى بأمور تستدعي قرب الإجابة:

* ومنها: إسقاط حرف النداء المشير إلى قرب المنادَى، وأنه حاضر مع المنادِي، غير غافل عنه؛ فدل على استشعار الراغب هذا المعنى؛ إذ لم يأت في الغالب إلا «ربنا» «ربنا» كقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧].

* ومنها: كثرة مجيء النداء باسم الرب المقتضي للقيام بأمور العباد وإصلاحها.

* ومنها: تقديم الوسيلة بين يدي الطلب؛ كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥-٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾. [آل عمران: ١٦]»(١)

وعند الحديث عن معاتبة القرآن رسولَ الله ﷺ يقول القاضي عياض: يجب على المسلم أن يتأدب بأدب القرآن في قوله وفعله، ومعاطاته، ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية، والدنيوية، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب، المنعم على الكل، المستغني عن الجميع، ويستثير ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب، إن كان ثَمَّ ذنب، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾. [الإسراء: ٧٤]»(٢)

١- «الموافقات» (٤/ ٢٠٢).

٢- «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (١/ ١٣١).

ومن أدب القرآن الذي يقتدى به ما ورد في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال أبو السعود: العدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه عَزَّوَجَلَّ دون أضدادها كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ [الجن:١٠]»[١]، قال الآلوسي: نَعَم، الأدبُ من خير رأس مال المؤمن، فلا ينبغي أن يُنسَب إليه سبحانه إلا الأفضل فالأفضل، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠][٢]، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴾ [الروم:٣٦]، وقول الخضر في السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف:٧٩]، وفي الغلامين ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف:٨٢][٣].

السابع عشر- التماس فرائد القرآن[٤]:

ونعني بفرائد القرآن تلك الآيات المتميزة التي حازت فضلا خاصا ومنزلة فريدة بين آيات القرآن الكريم، وقد نقلت لنا الأحاديث والآثار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين عنايتهم بالبحث والتنقير عن فرائد آيات القرآن الكريم التي تمثل زبدة حكمته العالية، وخلاصة علومه السامية، فكان أن تحدثوا عن مثل، أعظم آية في

١- «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٩).

٢- «روح المعاني» (١/ ١٢٠).

٣- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٦/ ١٤٦).

٤- هذه تسميتي ،وقد سماها السيوطي: «مفردات القرآن»، وقد كُتِبتْ في هذا الموضوع أبحاثٌ مختصرة عن أحكم آية وأعظم آية ، وكاتب هذه السطور بصدد الانتهاء من بحث جامع ينظم شتات هذه الفرائد بإذن الله تعالى.

القرآن، وأحكم آية، وأجمع آية لخير وشر، وأرجى آية، وأشد آية، وأخوف آية وأعدل آية، وهلم جرا.

وتبعهم عدد من علماء القرآن فأفردوا لهذا البحث الطريف جانبا من كتبهم المؤلفة في علوم القرآن، فعل ذلك الغزالي في «جواهر القرآن ودرره» وعلم الدين السخاوي في «جمال القراء»، والزركشي في «البرهان»، والسيوطي في «معترك الأقران والإتقان»[١]، وتناثر الحديث عن هذا الموضوع في بطون كتب التفسير، والأصل في ذلك ما أخرجه في «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص: ١٤٧).

سلم عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: فضرب في صدري، وقال: «**والله ليهنك العلم أبا المنذر**»[٢]، فتكرار السؤال من النبي ﷺ دليل على الأمر بالتماس مثل هذه الآيات وإعمال الذهن في البحث عنها.

وعن الشعبي قال: لقي عمر بن الخطاب ركبا في سفر فيهم ابن مسعود فأمر رجلًا يناديهم: من أين القوم؟ قالوا: أقبلنا من الفج العميق نريد البيت العتيق فقال عمر: إن فيهم لعالما وأمر رجلا أن يناديهم: أي القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال نادهم: أي القرآن أحكم؟ فقال ابن مسعود: ﴿إِنَّ

١- انظر: «جواهر القرآن» (ص: ٦٢) وما بعدها، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص: ١٤٧) وما بعدها، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٤٦) وما بعدها، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (١/ ٣٥٧) وما بعدها، و«الإتقان في علوم القرآن» (٤/ ١٤٨) وما بعدها.

٢- «صحيح مسلم»: [كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف، وآية الكرسي (١/ ٥٥٦)، (٨١٠)].

ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، قال نادهم: أي القرآن أجمع؟ فقال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧،٨]، فقال نادهم: أي القرآن أحزن؟ فقال: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فقال نادهم: أي القرآن أرجى؟ فقال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، فقال: أفيكم ابن مسعود؟ قالوا: نعم»[١].

***

١ - «الطيوريات» لأبي طاهر السلفي (١/ ٢٤٧).

المبحث الثالث
أخطاء منهجية في عملية التدبر

هذا مبحث قصير يتعلق بالأخطاء المنهجية في عملية التدبر القرآني، لم أطل الكلام فيه؛ بل جعلته كعلامات تحذيرية على الطريق.

أولًا- الاكتفاء بالتفكر عن التعلم إعجابا بالعقل:

فإن التفكر في الآيات لا يصح أن يكون إلا بعد العلم بمعانيها، قال الطبري: «لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه، اعتبرْ بما لا فَهْم لك به،ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام - إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به. فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل»[١].

وقال الغزالي: النقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولا؛ ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب»[٢].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى وجوب الجمع بين التعلم والتفكر؛ فقد دلت الآية على أن في القرآن ما يحتاج إلى البيان التوقيفي، وفيه ما يحتاج إلى التفكر العقلي، فمن استخدم العقل فيما سبيله التوقيف فقد أفرط في الثقة به، ومن اكتفى بالتوقيف دون إعمال عقله بالتفكير فقد فرط وقصر فيما أمر به، والانتفاع بالقرآن يحتاج إلى البيان النبوي مع التفكير العقلي.

١- «جامع البيان» (١/ ٨٢).

٢- «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٩١).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة»[١].

ثانيًا- الاكتفاء بالتعلم عن التفكر وقوفا عند حد النقل:

وهذا قد يكون تورعا من الشخص، أو كسلا، أو استصغارا لنفسه، أو ظنا منه أن المنقول قد أتى على معاني القرآن جملة ولم يترك للنظر بقية، وتلك أعذار واهية، وظنون فاسدة، إذ كانت أدلة وجوب التدبر كلها لازمة للخلف لزومها للسلف بلا فرق، وقد قال النبي ﷺ: «**لقد نزلت عليَّ الليلةَ آيةٌ، ويلٌ لِمَن قرأها ولم يتفكَّرْ فيها** ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[٢]، فعموم هذا الوعيد شامل لكل قاريء لا يتدبر من سلف وخلف. يقول الماوردي:امتنع بعض المتورعة ممن قلت في العلم طبقته، وضعفت فيه خبرته، أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، عند وضوح شواهده، إلا أن يرد بها نقل صحيح، ويدل عليها نص صريح، وهذا عدول عما تعبّد الله تعالى به خلقه في خطابهم بلسان عربي مبين، أبان عن مراده، وقطع أعذار عباده، وجعل لهم سبلا إلى استنباط أحكامه، كما قال الله تعالى: ﴿ **لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ** ﴾ [النساء: ٨٣]، ولو كان ما قالوه صحيحًا، لكان كلام الله غير مفهوم، ومراده بخطابه غير معلوم، ولصار كاللغز المعمَّى، فبطل الاحتجاج به، وكان ورود النص على تأويله، مغنيًا عن الاحتجاج بتنزيله، وأعوذ بالله من قول في القرآن يؤدي إلى التوقف عنه، ويؤول إلى ترك الاحتجاج به»[٣].

١- «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٣).

٢- أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، كتاب: [الرقائق، باب: التوبة، رقم) ٦٢٠)، (٢/ ٣٨٦)]، وقال الشيخ شعيب أرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

٣- «النكت والعيون» (١/ ٣٤).

وذم أبو حامد الغزالي صنيع « من قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما! وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي المنهي عنه» وعده حجة الإسلام «من الحجب العظيمة عن القرآن» فقال:» والآثار تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالًا رحبًا، ومتسعًا بالغًا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه»[١].

ووَجْهُ ذلك أنه ليس كل ما ورد عن السلف مسموعا من رسول الله ﷺ، إذ كان كثير منه مختلفا اختلافا لا يمكن الجمع بينه، فليس إلا أنهم اجتهدوا رأيهم واستنبطوا بفكرهم، والاجتهاد على هذا اتباع لسنتهم وسير على منهجهم. ولو كان المأثور مسموعا كله لم يمنع ذلك أيضًا من فهم وتدبر يزيد عليه ولا ينقضه، خاصة وقد أمر به الشارع وكرر، وأوعد على تركه وحذر[٢].

ثالثًا- التفلت من قواعد اللغة ودلالتها :

فينبغي على دارس القرآن استثمار ألفاظ القرآن واستنباط معانيها دون مبالغة في تحميل الألفاظ ما لا تحتمل من المعاني، ودون تعمق متكلف قد يقود إلى معاني ضعيفة واهية الصلة بالألفاظ، فإن للألفاظ منطوقا ومفهوما، وعبارة وإشارة، ومعاني أصلية وأخرى ثانوية، وهي درجات تتدرج من القوة إلى الضعف بحسب قربها من ظواهر الألفاظ وبعدها عنها، فعلى الدارس أن يعرف هذه الموازين، وأن يتمسك بدلالة اللغة؛ فلا يقبل من المعاني إلا ما ثبت نسبه ثبوتا صحيحا باللفظ القرآني، وأن يداوم البحث عن هذا النسب فإنه قد ينقطع عند التعمق، فيقع في تأويل باطني فاسد لا علاقة له بالألفاظ!

١- «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٥) ، (١/ ٢٩٠)، (١/ ٢٩١) وفيه رد مذهب الاكتفاء بالمنقول من أربعة أوجه.

٢- انظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٩٠).

فكم من أناس تركوا دلالة اللغة، وهاموا في أودية التأويلات الباطنية، وألحدوا في آيات الله، وحرفوا كلامه عن مواضعه، وافتروا عليه الكذب! وجعلوا «يقولون: كلام الله رموز وألغاز لا ينبئ ظاهره عن حق، ومفهومه عن صدق، ويجعلون ذلك من الذرائع إلى إبطال الشرائع»[١].وهل ضاعت الرسالات، وفسدت الشرائع قبلنا إلا بأيدي هؤلاء الكذبة الذين ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقد شهد تاريخ الأمة الإسلامية حربا فكرية وعسكرية على هذه الفئة الضالة، التي تسعى إلى تلويث مصادره العذبة من القرآن والسنة، وكتب العلماء كتبا كثيرة في التحذير من ضلال الباطنية، وإبطال مذهبهم، منها: «فضائح الباطنية» لأبي حامد الغزالي، و«بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية» لتقي الدين بن تيمية، وقولُه فيه صريح بكفرهم، وذلك حيث قال: وهم في الباطن من أعظم بني آدم كفرًا وإلحادًا حتى صار شعارهم «الملاحدة» عند الخاص والعام، وهم كافرون بما جاءت به الرسل مطلقًا، ومن أعظم الناس منافقة لجميع الناس من أهل الملل: المسلمين واليهود والنصارى، وغير أهل الملل»[٢].

وقد ظهرت مؤخرا طوائف من الباطنية الحديثة، يفوقون أسلافهم خبثا وكيدا للإسلام وأهله! أعني هؤلاء العلمانيين، الذين خرجوا علينا بنظريات شاذة، تتحدث عن القراءة الجديدة، ونسبية النصوص والمعرفة، وموت المؤلف، وحتمية التأويل، ونحوها مما يصب كله في اتجاه تعطيل دلالة القرآن والسنة وإسقاطها بالكلية، يقول بعضهم: إن النص بطبيعته مجرد صورة عامة تحتاج إلى مضمون يملؤها، وهذا المضمون بطبيعته قالب فارغ! يمكن ملؤه من حاجات العصر ومقتضياته، التي هي بناء الحياة الانسانية..! ومن

١- كتاب «الاعتقاد» للراغب الأصفهاني (ص ٤٣).

٢- «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» (٣/ ٥١٢).

ثم فالتأويل ضرورة للنص، ولا يوجد نص إلا ويمكن تأويله من أجل إيجاد الواقع الخاص به، ولا يعني التأويل هنا إخراج النص من معنى حقيقي إلى معنى مجازي لقرينة، بل هو وضع مضمون معاصر للنص إخراج النص من معنى حقيقي إلى معنى مجازي لقرينة، بل هو وضع مضمون معاصر للنص! لأن النص قالب دون مضمون!!»[١]... إلى آخر هذا العبث الذي يفضي لا محالة إلى إبطال العقل والشرع معا، وإسقاط التفاهم بين البشر جملة، وإبطال كلام صاحبه قبل كل ذلك كله، إذ كيف يمكن التفاهم مع إنسان لا يقر بأن للكلام معنى، ولا للألفاظ دلالة أصلا، وهو مع ذلك يطالبك بأن تفهم من كلامه ما لا يفهمه هو من كلام غيره![٢].

رابعًا- الانشغال بالدقائق اللفظية عن المعاني الكلية:

إن الانشغال بالدقائق اللفظية والاستغراقفيها كثيرًا ما يكون حائلا بين الإنسان وبين فقه المعنى القرآني والتدبر في مقصوده الأصلي، وانظر إلى هذا النموذج الذي طرحه بعض الإخوة على أنه أسئلة تعين على التدبر في سورة الكوثر: قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ لم جاء التعبير عن الرب سبحانه بضمير الجمع وليس الإفراد؟ لم عبر بالضمير وليس الاسم الظاهر؟ لم عبر بضمير الجمع (نا)، وليس: نحن؟ لم أكد الخبر؟ لم جاء التأكيد بإن؟ لم قدم المسند إليه "ضمير الجلالة"؟ لم عبر بالإعطاء دون الإيتاء؟ لم عبر عن الإعطاء بالفعل وليس الاسم؟ لم عبر عن الإعطاء بالفعل الماضي؟ لم عُرّف "الكوثر"؟ لم لم يقيد «الكوثر» بالمضاف «نهر»؟[٣]. إلى آخر ما ذكر من هذا النوع.

١- «نقد الخطاب الديني» نصر أبو زيد (١٨١).

٢- انظر: «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٣/ ٣٠٢) وما بعدها، «الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة» (٢/ ٦٣٣) وما بعدها.

٣- من مقال للأستاذ: يوسف العليوي بعنوان «أسئلة التدبر البلاغية» منشور في موقع «ملتقى أهل التفسير»: http: //vb.tafsir.net /tafsir 39704

فهذه التدقيقات اللفظية لا علاقة لها بالتدبر؛ بل هي أقرب إلى أن تكون تمارين لغوية ونحوية وبلاغية على القرآن، ربما تنفع صاحبها في تنمية قدراته اللغوية أكثر مما تفيده في فهم القرآن، والانتفاع بهديه.

وإن رأيت فيها فائدة ما تفيد المعنى القرآني فهي فائدة جزئية ضيقة، تشغلك عن رؤية المعنى الكلي والصورة الكاملة والمقصد الأعظم للآية والسورة، وحالك حينها كحال من يفحص لوحة رائعة الجمال بعدسة مكبرة، فمهما تنقل فيها بعدسته لن يرى في كل مرة إلا بضع سنتيمترات قليلة لا تعبر بحال عن اللوحة الباهرة.

يقول الشاطبي: كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو التفقه في العبارة، بل التفقه في المعبر عنه وما المراد به، هذا لا يرتاب فيه عاقل.» ثم بين أن هذا التعمق في تحليل الألفاظ ربما كان مشوشا على المعاني الكبرى المقصودة من القرآن، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأيضًا؛ فإنه حائل بين الإنسان وبين المقصود من الخطاب، من التفهم لمعناه ثم التعبد بمقتضاه، وذلك أنه إعذار وإنذار، وتبشير وتحذير، ورد إلى الصراط المستقيم؛ فكم بين من فهم معناه، ورأى أنه مقصود العبارة، فداخله من خوف الوعيد ورجاء الموعود ما صار به مشمرًا عن ساعد الجد والاجتهاد، باذلًا غاية الطاقة في الموافقات، هاربًا بالكلية عن المخالفات، وبين من أخذ في تحسين الإيراد والاشتغال بمآخذ العبارة ومدارجها، ولم اختلفت مع مرادفتها مع أن المعنى واحد، وتفريع التجنيس، ومحاسن الألفاظ، والمعنى المقصود في الخطاب بمعزل عن النظر فيه ؟!»[١].

١- «الموافقات» (٤/ ٢٦٢)، وانظر كلام الغزالي في الفرق بين المعنى والتفسير في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٩٥)، وفي الفرق بين علوم الصدف وعلوم الجوهر في «جواهر القرآن» (ص: ٣٥) فإنه أصل كلام الشاطبي.

لا ننكر أن دراسة لغة القرآن ونحوه وبلاغته أداة ضرورية لفهم القرآن، ولكننا ننكر أن تتحول الأدوات إلى مقاصد، والمفاتيح إلى غايات، وأن يتم الوقوف عندها والتعمق فيها حتى تتحول كثير من كتب التفسير إلى ما يشبه كتب التدريبات اللغوية، والصرفية، والبلاغية، وينصرف أصحابها إلى تشريح ألفاظ القرآن تشريحا دقيقا، دون عناية تذكر بمقاصده وغاياته وهداياته الكلية.

إن وقوف المفسر عند دراسة الألفاظ والتراكيب، وعدم تجاوزها إلى النظر في المعاني والمقاصد والهدايات، يجعله أشبه بمن يريد معرفة أخلاق إنسان من خلال وضعه على جهاز للأشعة السينية التي تفحص العظام! أو بمن يريد أن يتعرف إلى فكر شخص بتمزيق جسده وتشريحه تحت مجهر الكتروني !!

نعم ربما كان هذا البناء العظمي هو ما يحمل جسد الإنسان كله، لكن الإنسان شيء أكثر من مجرد هيكل عظمي، إنه كائن حي، فيه جسد وروح، وحياة وحركة، وجمال وكمال، وعقل وضمير، له فكر وأخلاق، وآمال وآلام. ومثل هذه الإنسان لا يمكن أن يتعرف عليه بتشريحه تحت مجهر لا يظهر منه إلا مجموعة من الأعصاب والخلايا، وصفائح دموية بيضاء أو حمراء.

ويلاحظ المتتبع لمسيرة التفسير أن هذا التشقيق لم يظهر في كتب التفسير المتقدمة؛ بل سلمت منه القرون الأولى، فلا نكاد نرى أحدا من مفسريها يتساءل عن مثل هذه الدقائق؛ بل كانوا يكتفون بما يفهم به المعنى ويدرك به المقصود دون تكلف وتعمق. قال الشاطبي: علم التفسير مطلوبٌ فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد

معلوما؛ فالزيادة على ذلك تكلف، ويتبين ذلك في مسألة عمر»[١] فعن أنس بن مالك: قرأ عمر ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١] فقال: قد علمنا الفاكهة، فما الأبّ؟ ثم أحسبه قال: إن هذا لهو التكلف[٢]، قال ابن كثير: «وهذا كله محمول على أنه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إنما أراد استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتا من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ [عبس: ٢٧]»[٣].

ولعل هذا ما أشار إليه ابن القيم حين قال: وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم»[٤].

ولاريب أن السابقين الأولين كانوا أكثر الناس انتفاعا بالقرآن، وإدراكا لهديه، والتزاما به، لا يجادل في هذا إنسان.

فعلى من يريد الانتفاع بالقرآن أن يجعل همه المعاني، ووجهه شطر المقاصد، ولا يشغل نفسه إلا بما يخدمها ويدل عليها، يقول الغزالي: وسر القرآن، ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى، دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السماوات العلى، والأرضين السفلى، وما بينهما وما تحت الثرى، فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع، ثلاثة منها: هي السوابق والأصول المهمة، وهي:

(١) تعريف المدعو إليه بذاته وصفاته وأفعاله.

١- «الموافقات في أصول الشريعة »(١/ ٥٧).

٢- «جامع البيان» للطبري (٢٤/ ٢٢٩).

٣- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ١١).

٤- «التبيان في أقسام القرآن» (ص: ٧٩).

(٢) تعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.

(٣) تعريف الحال عند الوصول إليه.

وثلاثة منها مغنية متمة وهي:

(١) تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم؛ وسره ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة وكيفية قمع الله لهم وتنكيله لهم؛ وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

(٢) حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق، وسرُّه ومقصودُه في جنب الباطل الإفضاح والتنفير، وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقهير[1].

(٣) تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد»[2].

خامساً- العجلة في اعتماد المعاني قبل استفراغ الوسع في التدبر:

وهو أن لا يتدبر القرآن حق تدبره، «فيفسره بما يخطر له من بادئ الرأي دون إحاطة بجوانب الآية، مقتصرا على بعض الأدلة دون بعض، كأن يعتمد على ما يبدو

١- لعله يعني بالتقهير جعلهم قاهرين لعدوهم، ولم أقف على هذا المصدر في شيء من دواوين اللغة، إلا أنه ورد عرضا في أبيات للأضبط بن قُريع بن عوف، وكان أغار على أهل صنعاء، وبنى بها حصنًا، وقال:

وشَفَيْتُ نَفْسِي، مِنْ ذوِي يَمَنٍ بالطَّعْـنِ فِي اللَّبَّـات والضربِ
قَتَّلتهـمْ وأَبَحْـتُ بَلَدَتَهـم وأَقَمْـتُ حَـوْلًا كامِـلًا أَسْـبِي
وبَنَيْـتُ أُطمًـا فِي بِلَادِهِـمُ لأُثَبِّـت التَّقْهِـيرَ بالغَضْـبِ

انظر: «لسان العرب» - (أط م)، (١٢/ ١٩).

٢- «جواهر القرآن»(ص: ٢٣).

من وجه في العربية فقط»[١] فإن اعتبار المعاني ليس بحسنها وروائها وطرب النفوس لها، ولكن بصدقها وصحتها وعدم مصادمتها لأصول الدين وقواعده التي ثبتت قبلُ بالقرآن والسنة والإجماع. ولذا ترى بعض المفسرين تقع إليه بعض المعاني المستطرفة التي يستحليها الذوق، غير أنها لا تثبت بمقاييس العلم، فيعلق عليها بتعليق طريف قائلا «هي كالورد يُشم ولا يدعك» قاصدا بذلك أنها رغم طلاوتها ضعيفة خفيفة، لا تصمد في الاختبار، ولا تثقل في الميزان.

***

١- «التحرير والتنوير» (١/ ٣٠).

الخَاتِمَة

وبعد فقد عرضت في هذه الورقات نظرات خاطفة حول أساليب التدبر عند العلماء، هي ما أذن به الوقت والحال. وليست بالتأكيد منتهى الأمل، أو غاية الرجاء؛ ذلك أن دراسة الأساليب الفنية للتدبر موضوع كبير نظرا لأمرين :

الأول- ضخامة التراث التدبري الذي نملكه، وتوزعه في مصادر شتى، وهو ما ينتظر جهدا جماعيا جادا يقوم على جمعه وتنقيحه وترتيبه.

والثاني- تنوع أساليب العلماء في التدبر ودقتها وغموضها لدرجة دفعت بعضهم إلى أن يذهب إلى أنها مجرد مواهب إلهية وفتوحات ربانية، لا تنضبط بضابط، ولا يمكن تعلمها فضلا عن تعليمها![1].

فلتكن هذه الصفحات التي سطرتها خطوة على الطريق تدفع نحو مزيد من البحث والدراسة.

نتائج البحث:

ظهرت للباحث عدة نتائج من أهمها ما يلي :

١- التدبر عمل قلبي يقوم على التأمل في آيات الله تعالى والنظر في تطبيقها على الفرد والمجتمع.

٢- ثمة فروق دقيقة بين التدبر والتفكر والتذكر والتفسير والاستنباط.

١- ونحن كما نؤمن ونوقن بأنه لا علم لنا إلا ما علمنا الله ، ولا فهم إلا ما رزقنا الله ، وأن الخلق لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - نوقن أيضًا بأن العلم بالتعلم والفهم بالتفهم، وأن فضل الله إنما يتنزل على العاكفين في محاريب العلم يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، هؤلاء هم الذين يتنزل عليهم فضل الله وهدايتهم وتحفهم ملائكته.

٣- التدبر واجب شرعي على كل سامع وقارئ للقرآن الكريم، بحيث لا يغني فيه أحد عن أحد.

٤- الأمر بالتدبر غير مختص بالمسلمين ولا بالعلماء منهم، بل هو متوجه لكل من يسمع ويعقل من مسلم وكافر.

٥- للتدبر نوعان: كلي، يتأمل في القرآن كله باعتبار دلالته على صدق محمد ﷺ، وجزئي ينظر في آيات القرآن ليستلهم هداياته في شئون الحياة تفصيلا.

٦- هناك موانع تحول بين الإنسان وبين التدبر من أهمها: انشغال القاريء بتحقيق الحروف عن النظر في المعاني، والتقليد الذي يحجر على العقول فيمنعها التفكير والتأمل، والذنوب التي تغشى القلوب فتفسد فطرتها، واعتقاد المرء أن لا معنى للقرآن إلا ما نقل عن السلف وأنه ما ترك الأول للآخر شيئا.

٧- ثمة أساليب منهجية يستعملها العلماء في تدبرهم لكتاب الله تعالى، بعضها قد نصوا عليه، وبعضها يمكن فهمه استنباطا من كلامهم.

٨- هناك أخطاء منهجية قد تقع في عملية التدبر، أهمها: الاكتفاء بالتفكر عن التعلم إعجابا بالعقل، والاكتفاء بالتعلم عن التفكر وقوفا عند حد النقل، والتفلت من قواعد اللغة ودلالتها، والانشغال بالدقائق اللفظية عن المعاني الكلية، والعجلة في اعتماد المعاني قبل استفراغ الوسع في التدبر.

التوصيات:

هذا ووصيتي لمن يتصدى لتعليم القرآن وتفهيمه أن يحيي سنة التدارس الجماعي، الذي يقوم على استثارة العقول وتلاقح الأفكار، وأن يبتعد عن تلقين

المعلومات الجاهزة، فإن تلقين الفكرة يحجر على العقل، ويلقيه في العجز، ويعوده الكسل والخمول.

إن ما يستطيع الطالب أن يحصله بنفسه، لا ينبغي للأستاذ أن يلقيه إليه سهلا أبدا ؛ بل عليه أن يتركه يسعي لتقوى قدمه، ويتعب ليشتد ساعده، ويفكر ليشحذ ذهنه.

ولقد جربت هذا الأمر مع طلبة الكليات الشرعية، فكنت أطرح عليهم كثيرًا من المسائل المتعلقة بالقرآن وتفسيره ومشكله ومتشابهه، فلم أعدم يوما منهم جوابا عن سؤال، أو حلا لإشكال؛ بل ربما كانت عدة أجوبة تطابق أحيانا ما ذكره أئمة التفسير الكبار، أو تزيد عليها. فلو نظر إلى أحدهم حينها لرأى أستاذًا يمسك بقلمه ويدون بإعجاب أفكار طلابه الحية وآراءهم الرائعة.

إن عطاء الله لا يختص بشيخ أو شاب، أو رجل أو امرأة، وعلينا أن نحول التدبر القرآني إلى ثقافة مجتمع، وأن نستثمر عقول الجميع في تأمل معانيه، واستنباط فوائده، واستخراج حكمه وأحكامه، تحت رعاية علمية متخصصة، ترسم منهجه، وتتابع خطواته، وتروي شجرته الطيبة؛ فتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ونصيحتي لمن تعلم القرآن أن يقرن العلم بالعمل، وألا يغتر بما حصل من علم فيظنه غاية المراد ونهاية المقصود، فإن العلم لا يقصد لنفسه، ولا يراد لذاته؛ بل للعمل به والسلوك على منهاجه، يقول محمد بن كعب القرظي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله،ق ال أبو حامد الغزالي: «وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرا العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله، ويعمل بمقتضاه».

ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عَزَّوَجَلَّ بعهوده نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات.

وقال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن أحق الناس بهذا القرآن من رؤى في عمله».

وقال قتادة: «لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]».

وكان مالك بن دينار يقول: «ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض!»[١].

تم البحث

والحمد لله أولًا وآخرًا

***

١ - «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٥) بتصرف يسير.

المصادر والمراجع

- **القرآن العظيم.**
- **أحكام القرآن**: أحمد بن علي، أبو بكر الرازي الجصاص،تح: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٠٥ هـ.
- **أحكام القرآن**: محمد بن عبد الله، أبو بكر بن العربي المعافري، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٢٤ هـ.
- **الإحكام في أصول الأحكام**: أبو محمد علي بن حزم الظاهري،تح: أحمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.
- **إحياء علوم الدين**: أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
- **الآداب الشرعية والمنح المرعية**: محمد بن مفلح، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**: أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول**: محمد بن علي الشوكاني، تح: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
- **أساس البلاغة**: أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، تح:محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١،١٤١٩ هـ.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تح:محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١،١٤١٨هـ.

- **البحث العلمي**: أساسياته النظرية وممارسته العملية، رجاء وحيد دويدري، دار الفكر المعاصر – بيروت، ١٤٢١ هـ.
- **البحر المحيط في التفسير**: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- **البرهان في علوم القرآن**: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٦هـ.
- **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،ط١، ١٤٢٦هـ.
- **البيان والتبيين**: عمرو بن بحر الجاحظ ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**: محمد مرتضى الزبيدي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، د.ت.
- **تاريخ دمشق**: علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،١٤١٥ هـ.
- **تأويلات أهل السنة**: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي ، تح: مجدي باسلوم ، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦ هـ.
- **التبيان في أقسام القرآن**: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- **التحرير والتنوير**،محمد الطاهر بن عاشور،الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م.
- **التذكار في أفضل الأذكار**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٠٦ هـ.

- **تفسير الإمام الشافعي**: جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان ، دار التدمرية – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٧هـ.

- **التفسير البسيط**: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠ هـ.

- **تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم**: أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي،تح: علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية – بيروت،١٤١٣هـ.

- **تفسير القرآن العظيم**: إسماعيل بن عمر بن كثير، تح: سامي سلامة،دار طيبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٠هـ.

- **تفسير القرآن، أبو المظفر**: منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني، تح: ياسر إبراهيم وآخر، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ.

- **التفسير الكبير**: فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثالثة، ١٤٢٠هـ.

- **التفسير والمفسرون**: محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، د.ت.

- **تهذيب الأسماء واللغات** : أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.

- **تهذيب اللغة**: محمد بن أحمد، أبو منصور الأزهري تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تح: عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤٢١،١هـ.

- **جامع البيان في تأويل آي القرآن**: محمد بن جرير الطبري، تح: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة،بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- **الجامع لأحكام القرآن**: محمد بن أحمد القرطبي، تح: أحمد البردوني وآخر، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ.
- **جواهر القرآن ودرره**: أبو حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط الثانية، ١٤٠٦هـ.
- **دلائل الإعجاز في علم المعاني**: عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ.
- **روائع إقبال**: أبو الحسن على الحسني الندوي ، دار الفكر دمشق، ط١ ، ١٣٧٩هـ.
- **زاد المسير في علم التفسير**: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١، ١٤٢٢هـ
- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: عياض بن موسى اليحصبي، دار الفيحاء، عمان، ط٢، ١٤٠٧هـ.
- **الصحاح أو تاج اللغة وصحاح العربية**: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ.
- **صيد الخاطر**: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار القلم – دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ.
- **الطيوريات**: انتخبها صدر الدين، أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي من أصول: أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي الطيوري ، تح: دسمان يحيى معالي، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ١٤٢٥ هـ.

- **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**: ابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، ط. الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- **العزفُ على أنوار الذِّكر – معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة**: د.محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة – القاهرة، د.ت.
- **العقل وفهم القرآن**: الحارث بن أسد المحاسبي، تح: حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ.
- **غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني**: أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، من أول سورة النجم إلى آخر سورة الناس، دراسة وتحقيق: محمد مصطفي كوكصو، رسالة دكتوراه- جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية – تركيا، ١٤٢٨ هـ.
- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**: الحسن بن محمد النيسابوري، تح: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ.
- **غريب الحديث**: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، تح: عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ.
- **غريب الحديث**: أبو سليمان حَمْد بن محمد بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، تح: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
- **الفروق اللغوية**: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تح:محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
- **فصول في أصول التفسير**: د.مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٣هـ.
- **فضائل القرآن**: أبو العباس جعفر بن محمد المستغفري، تح: أحمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٨م.

- **فضائل القرآن**: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم ،تح: مروان العطية وآخرين، دار ابن كثير دمشق، ط١، ١٤١٥ هـ.

- **الفوز الكبير في أصول التفسير**: أحمد بن عبد الرحيم، ولي الله الدهلوي، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، دار الصحوة – القاهرة، ط٢، ١٤٠٧ هـ.

- **كتاب الاعتقاد**: لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، الراغب الأصفهاني، تح: أختر جمال محمد لقمان، رسالة ماجستير بكلية الشريعة – جامعة أم القرى بمكة المكرمة، سنة ١٤٠٢هـ بإشراف أ.د: محيي الدين الصافي.

- **كتاب تفسير القرآن**: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تح: سعد بن محمد السعد، دار المآثر – المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٣ هـ.

- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ.

- **اللباب في علل البناء والإعراب**: أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تح: د. عبد الإله النبهان، دار الفكر – دمشق، ط١، ١٤١٦هـ.

- **لطائف الإشارات**: عبد الكريم بن هوازن القشيري،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط: الثالثة، بدون.

- **مجالس القرآن**، فريد الأنصاري، دار السلام، القاهرة،ط٣، ١٤٣٤هـ.

- **مجموع الفتاوى**: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تح: عبد الرحمن بن قاسم،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ.

- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤٢٢هـ.

- **المحكم والمحيط الأعظم**: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١٤٢١،١ هـ.
- **مختصر قيام الليل**: أبو عبد الله محمد بن نصر المروَزِي، اختصره: العلامة أحمد بن علي المقريزي– حديث أكادمي، فيصل اباد – باكستان، ط١، ١٤٠٨ هـ.
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤١٦ هـ.
- **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**:لأبي الحسن عبيد الله بن محمد المباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء ، الجامعة السلفية، بنارس الهند، ط١٤٠٤،٣ هـ.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
- **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**: مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- **معاني القرآن**: أبو جعفر النحاس،تح: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة،ط١، ١٤٠٩هـ.
- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**: محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية – بيروت، د.ت.
- **المفردات في غريب القرآن**: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تح: صفوان عدنان، دار القلم بيروت،١٤١٢هـ.
- **مفهوم التدبر تحرير وتأصيل**: أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم، نشر: مركز تدبر، الرياض،١٤٣٠هـ.

- **ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل**: لابن حزم، تلخيص الذهبي، تح: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٩ هـ.
- **مناهل العرفان في علوم القرآن**: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، د.ت.
- **الموافقات في أصول الشريعة**: إبراهيم بن موسى الشاطبي، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ.
- **نقد الخطاب الديني**: نصر أبو زيد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م.
- **النكت في معاني القرآن الكريم وإعرابه**: علي بن فَضَّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي، تح: عبد الله عبد القادر الطويل، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٨ هـ.
- **النكت والعيون**: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الشهير بالماوردي، تح: السيد عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت.

***

المحتويات

منهج البحث ٢٢

المبحث الأول: «التدبر» مفهومه، ومبادئه ٢٣

المبحث الثاني: أساليب منهجية في تدبر القرآن الكريم.................. ٤٨

المبحث الثالث: أخطاء منهجية في عملية التدبر ٩٠

الخاتمة ١٠١

المصادر... ١٠٥

الفهرس... ١١٣